هنـــري لورنـــس

المغامر والمستشرق

ترجمة : بشير السباعي



532

المشروع القومى للترجمة

المغامرُ والمستشرق

تأليف: هنري لورنس

ترجمة: بشير السباعي



٢٠٠٣

المشروع القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

ـ العدد: ٥٣٢
ـ المغامرُ والمستشرق
ـ هنري لورنس
ـ بشير السباعي
ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٣

شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya st., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel: 7352396 Fax: 7358084 E.Mail: asfour@onebox. Com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

كلمة من المترجم

يشتمل هذا الكتاب على ثلاث دراسات ـ مستقلة ومتداخلة في آن واحد ـ للمؤرخ الفرنسي البارز هنري لورنس نشرت بين عامي ١٩٨٩ و١٩٩٥.

وتتناول هذه الدراسات جوانب من التاريخ الكولونيالي للعالم العربي الحديث والمعاصر وتبرز دور المغامر والمستشرق في مجريات **اللعبة الكبرى** من أجل السيطرة على الشرق.

والدراسة الأولى مكرسة للفارس **دو لاسكاريس** (١٧٧٤ـ١٨١٧) الذي تبدأ مغامرته في مصر مع الحملة الفرنسية وتنتهي فيها في عصر محمد علي. وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة **كاييه دو لوريان**، العدد ٧، بمناسبة الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية الكبرى.

أما الدراسة الثانية فهي مكرسة **لتوماس ادوارد لورانس** (١٨٨٨ــ١٩٣٥)، الشهير بلورانس العرب، والذي يرتبط اسمه تاريخياً بالثورة العربية ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى ويعتبر المهندس الرئيسي للانتصار الإنجليزي على القوات التركية التي يقودها الضابط الألماني فالكنهاين (دمشق، ١٩١٨). وقد نشرت هذه الدراسة في كتاب مستقل، صدر عن دار نشر جاليمار الباريسية في أواخر عام ١٩٩٢.

وأمّا الدراسة الثالثة فهي مكرسة للمستشرق الفرنسي المعروف **لويس ماسينيون** (١٨٨٣ــ١٩٦٢)، الذي شارك في صياغة السياسة الفرنسية حيال العالم الإسلامي في عهد الجمهورية الثالثة. وتتوقف الدراسة عند عام ١٩٤٠ ولا تتناول مواقف ماسينيون بعد سقوط الجمهورية الثالثة. وقد نشرت هذه الدراسة في نشرة جمعية أصدقاء لويس ماسينيون، العدد ٢، يونيو/ حزيران ١٩٩٥.

[١]

الفارس دو لاسكاريس
وبدايات اللعبة الكبرى

بالنسبة لمعاصري الثورة الفرنسية الكبرى، تُعَدُّ بداياتُ التوسع الأوروبي في داخل أراضي العالم القديم مهمةً أهميةَ الانقلابات السياسية التي تؤدي إلى دمار النظام القديم الأوروبي. والحال أن الحملة الفرنسية على مصر [١٧٩٨ـ١٨٠١] توحد السيرورتين وتجعلهما متداخلتين. ومنذ ذلك الحين، يمتد تنافس الدول الأوروبية من الدولة العثمانية إلى الهند، مثيراً لتساؤلٍ دائمٍ حول مستقبل بلدان الشرق. وتصبح السيطرة المباشرة على منطقةٍ ما مسألةً صعبة، وذلك بسبب التعقيدات المحلية، وخصوصاً بسبب المعارضة القوية من جانب دول أخرى. ويتحول التوازن الأوروبي إلى توازن عالمي تديره أوروبا. وفي الشرق، يمر تنافس الدول بصراعات على النفوذ. وتبدأ **اللعبة الكبرى** التي سوف يتحدث عنها كيبلنج في كيم.

والفاعلون في **اللعبة الكبرى** هم الديبلوماسيون، والمستشارون العسكريون والفنيون المرسلون في بعثات إلى الشرق، والمستشرقون في المتروبولات: فجميعهم يسعون ـ استناداً إلى معارفهم ونشاطاتهم ـ إلى تحديد ما سوف يكون عليه مستقبل الشرق، وفي المقام الأول مستقبل الدولة العثمانية: هل ستنجو وتبقى عبر القدرة على تجديد نفسها من خلال تبني صيغ الغرب أم ستسقط وتجعل من الدول الأوروبية وريثة لها أم ستخلي مكانها لدول قومية منبثقة من الجماعات البشرية التي تؤلفها والتي تشكل جزءاً من الزبائن السياسيين للدول العظمى؟

والحال أن هذه الإجابات، التي يمكن أن تجتمع فيما بينها، كانت قد صيغت بالفعل في تأملات مسئولين أوروبيين في أواخر القرن الثامن عشر. وقد صيغت مستقبلاتٌ مُعَدَّةٌ علمياً دون علم الجماعات السكانية الشرقية التي تحيا اللحظات الأخيرة لثقافة سياسية شرقية متجانسة. وتبدأ **اللعبة الكبرى** بتعدد أبعادها: الاقتصادي والسياسي والثقافي.

وهذا التكوين لدول جديدة ولأمم جديدة يفتن بعض الأوروبيين الذين يجدون في ذلك إمكانية أن يمارسوا في التاريخ دوراً، بل ودوراً ثورياً، لا يسع أوروبا أن تتيحه لهم. هكذا تظهر شخصية جديدة، هي شخصية المغامر الذي يريد ـ مكلَّفاً من متروبوله إلى

هذه الدرجة أو تلك ـ إعادة بناء شرق يشبه الغرب، مع وجود المغامر في توتر أبدي، يصعب التغلب عليه، بين ثقافتين وخاصة بين ولائين. والمثل الأشهر لذلك هو ت. أ. لورانس.

ومن ثم فالمغامر شخصية أساسية في **اللعبة الكبرى**. وهو يحول هذه اللعبة إلى ساحة يتكشف فيها كل ما يمكن للخبرة البشرية أن تحمله من مجاوزة للحدود.

والأول، حسب الترتيب الزمني، بين هؤلاء المغامرين، هو الفارس دو لاسكاريس الذي تعلن حياته المحطمة بشكل رمزي قوي عن التعريفات التي سوف يأخذها الشرق العربي في الربع الأول من القرن العشرين، أي بعد مائة عام.

تيودور دو لاسكاريس ومصر

ولد تيودور دو لاسكاريس دو فنتيميل في عام ١٧٧٤ في بيمونت سردينيا. وتزعم عائلته الانحدار مباشرة من نسل الأباطرة البيزنطيين الذين يحملون اللقب نفسه. وهي عائلة وثيقة الارتباط بأخوية فرسان مالطة وتمنح الأخوية في القرن الثامن عشر أستاذا أكبر. ويصبح تيودور بالطبع أحد فرسان مالطة في الزمن الذي تبدأ فيه الثورة الفرنسية الكبرى. وعندما يستولي بونابرت على

مالطة في عام ١٧٩٨، وهو في طريقه إلى مصر، يرفض الفـارس الشاب محاربة الفرنسيين ويجد نفسه منخرطاً في العمل كمعمـاري في الإدارة الجديدة لمصر.

وفي عام الحملة الأول، سوف نجد أن وظيفته الرئيسية، وهـي وظيفة معماري في الإدارة العامة، إنمـا تنحصـر فـي تصنيـف وتوزيع بيوت المماليك المصادرة. ولا تحتوي أرشيفات الحملة على آثار محسوسة لهذا النشاط. وإنه لأكثر مـن مرجـح أن الفـارس السابق يستفيد من هذه الفترة لكي يتعلم على الأقل العربية المنطوقـة ولكي يتصل بمحاوريه الطبيعيين، الأقباط، الذين يتولون، تاريخيـاً، إدارة الشئون المالية المصرية.

وحتى ينجح المغامر، لابد له من أن يكون متلاعباً بـالآخرين: فلم يكن بوسع ت. أ. لورانس أن يتصرف إلاَّ من خـلال الأمـير فيصل. ويجد لاسكاريس رجله في شخص **المعلم** يعقوب في زمـن قيادة كليبر.

وقد ولد يعقوب في عام ١٧٤٥ في ملوي في صعيد مصـر. وتلقى تعليماً قبطياً جيداً : معرفة للعربية المكتوبة، كتابـة جيـدة، أفكاراً جد رحبة عن الحساب. ومن ثم فبوسعه أن يصبح **كاتباً** عنـد أمير مملوكي. ففي الزمن الذي يحكم فيه علي بك الكبـير مصـر

ويجعلــها مــن الناحيــة العمليــة مســتقلة عــن البــاب العــالي (١٧٦٧ــ١٧٧٣)، يدخل يعقوب في خدمة سليمان بــك ويصبـح، بفضل قدراته، **المباشر** العام لهذا البيك الذي يحوز علـى شكــل التزامٍ جزءًا كبيراً من إقليم أسيوط. وهو يقتفي مسيرة سيده الـذي هو أحد الشخصيات الرئيسية في الأعوام الأخيرة للنظـام الحـاكم المملوكي الجديد. بل إنه يقاتل ضد العثمـانيين فـي عـام ١٧٨٧، عندما يحاول هؤلاء الأخيرون استعادة سلطتهم المباشرة في مصـر. وفعل كهذا من جانب رجل من ملته ومهنته إنما يعد واقعا اسـتثنائيا تماما.

وبلقبه **كمعلم**، يصعد إلى قمة المهنة التي يمكن أن يحلـم بـها قبطي في القرن الثامن عشر لكنه، كجميــع **المعلميــن** الآخريــن، ينحاز إلى بونابرت في عام ١٧٩٨. وهو يتولى مسـئولية الشـئون المالية لصعيد مصر، وذلك بسبب ما يتميز به مــن كفــاءة، وهــو الأمر الذي يجد ترجمة له، بشكل ملموس أكثر في التو والحال، فـي توليه مسئولية الشئون المالية لجيش ديزيه الصغـير الـذي خـرج لمطاردة مراد بك إلى ما وراء الشلال الأول. ويبدو أنه كان مفيــدا جدا للفرنسيين الذين منحوه سيف شرف، وهو شكل التكريم الوحيـد المعروف آنذاك في جيوش الجمهورية الفرنسية.

وهو يعود إلى القاهرة في أواخر عام ١٧٩٩ مع ديزيه، حيث كان بونابرت قد رحل بالفعل إلى فرنسا. ونحن نجهل تاريخ اللقاء بين المعماري والمباشر لكن ارتباطهما يتحقق بسرعة: ففيما عدا بعض الوثائق الإدارية، لا نجد ذكراً له إلاَّ في مشاريع صادرة عن لاسكاريس.

ويدخل الارتباط الجديد حيز النشاط في اللحظة التي ينخرط فيها كليبر في سلفيات مفروضة على الأقباط، سعياً منه إلى تخفيف الأزمة المالية الدائمة التي يمر بها الجيش. ويلهم لاسكاريس الملة القبطية فكرة المطالبة بالحصول على صعيد مصر كالتزام، فهذا هو السبيل الوحيد للتمكن من استخلاص المواد الضرورية من أجل بقاء الجيش. واسم يعقوب موجود في عموم المشروع[١]. وعبر مبادرة كهذه، يتجاوز لاسكاريس إلى حد بعيد مهامه الرسمية. إنه ينخرط في السياسة مستخدماً مسيحيي مصر كرافعة لهذا الانخراط.

وإذا كان مطلب الملة القبطية يظل دون استجابة، فإن لاسكاريس ويعقوب يحصلان على مسئوليات جديدة. إذ يصبح يعقوب أغا الملة القبطية. وفي أثر ذلك، يبدأ في تكوين فيلق قبطي في خدمة الفرنسيين. والحال أن هذا الفيلق سوف يصل تدريجياً إلى ثمانمائة رجل، الأمر الذي يجعل من يعقوب شخصية مهمة على المسرح السياسي. أما لاسكاريس، فهو يحصل على المسئولية عن

التلزيمات والرسوم المفروضة على المنقولات والمترتبة على التركات.

وفي ١٤ يونيو/ حزيران ١٨٠٠، يموت كليبر مقتولاً، ويحل محله مينو الذي يمثل الاتجاه «الاستعماري» في الجيش، وهو اتجاه أقلية ضئيلة بين الفرنسيين الذين تتمنى غالبيتهم العودة إلى أوروبا. ومن ثم يمكن للاسكاريس، «الاستعماري» منذ البداية، أن يحلم بلعب دور أعظم.

ومشروعه الأول الموجه إلى مينو لا يحمل تاريخاً لكن رد مينو يحمل تاريخ ١٠ يوليو/ تموز ١٨٠٠. ويتخذ لاسكاريس مظهر منظِّر استعمار مصر ويقترح«وسيلة بقائنا دائما في مصر عبر مجرد صدمة التعصبات المتعارضة المميزة لسكانها». ومعتمداً على واقع أن مصر كانت دائماً «مهد التعصب»، يرى أنه إذا كان الدين الجمهوري لا يستطيع، في التو والحال، أن يجد أتباعاً له، بسبب بساطة ممارساته، فإنه بالقضاء على جميع أشكال التفرقة الدينية من خلال رفع «جميع الطوائف [الدينية] إلى درجة واحدة من النفوذ السياسي»، سوف يتسنى لتلك [الطوائف] التي عذبها الإسلام وحط من شأنها أن تزدهر على حسابه إلى الدرجة التي تمكِّنها من الوصول إلى عدد مساوٍ من المشايعين. ومنذ تلك اللحظة، سوف يكون بوسع الفرنسيين أن يحكموا عبر «هذا التوازن

للتعصبات المتعارضة»، وفي المرحلـــة الثانيـــة، ســوف يصبــح الأنصار الجدد للفلسفة المضادة عديدين بشكل متزايد باطراد إلـــى درجة تحويل المصريين «إلى طائفة واحدة ومتماثلة هـــي طائفــة الفرنسيين». ومطبِّق هذه السياسة الرائعة لا يمكن أن يكــون غــير القائد العام الذي، باجتذابه ثقة السكان، سوف يعمل على إعادة هــذا البلد الشهير «إلى ما كان عليه في الأزمنـــة الماضيــــة، مركــزاً للوفرة وللمعارف ولتجارة العالم».

ونرى بوضوح، خلف المظهر الخيالي للمشروع، إتِّباع عيـــن استراتيجية الفعل عن طريق الأقباط.

ويرد عليه مينو بأنه لا ينوي أن يكـــون زعيــم طائفــة وأن «ديانته العقلية الصغيرة» تكفيه[٢].

ولا يفقد لاسكاريس الأمل، وفي ٢٥ ثيرميدور من العام الثامن (١٣ أغسطس/ آب ١٨٠٠)، يكتب من جديــد إلـــى مينــو. وهــو يعترف بأنه يضع المشاريع كما يصنع الآخرون الفتوحات والأحذيـة وكما يضعون الدساتير والأطفال، الخ. وهذا المشروع الجديد الـــذي لا يمكنه أن يعود عليه إلاَّ «بشهادة جنون يمنحنـــي الجميـــع إياهــا بالفعل»، إنما يتمثل في بناء سد ضخـــم عنــد رأس الدلتــا وبنـــاء عاصمة جديدة لمصر، هي مينوبوليس، التي سوف تكـــون نقطـــة

اللقاء بين منتجات أفريقيا ومنتجات البلدان التي تطل علـــى البحـــر المتوسط، وستكون موقع الانصهار بين الغـــرب والشـــرق. وهنـــا نجـــد استشرافاً للقناطر الشهيرة التي شيدها محمد علي لتنظيـــم ري الدلتا.

الحزب المصري

والواقع أن المغامر يكشف، في بقية نصه، عن الهدف الحقيقـــي لمشروعه. إنه يدرس إمكانية تخلي فرنسا عن مصر إثر مســـاومة على الصلح العام: «في هذا الفرض، سوف يكون من المهم للغايـــة ترك حزب قوي، يمكنه البقاء هناك مسلحاً لكي يحافظ على نفوذنـــا السياسي والتجاري هناك، وأخيراً لكي يساند الفرنســـيين فيمـــا لـــو هاجموها [مصر] من جهة أخرى».

وتتلخص الفكرة في الاضطلاع في صعيـــد مصـــر بتوحيـــد جميـــع أعوان الفرنسيين مع مماليك مراد بك الـــذي يعتـــبر، منـــذ معركة عين شمس، حليف الفرنسيين. كما أن هؤلاء الأعوان سوف يُبقون مراد بك فـــي الحزب الفرنسي. وحتى يتم ذلك، يجـــب فـــي التو والحال تعزيز الفيلـــق القبطي الذي يقـــوده يعقـــوب تعزيـــزاً ملحوظاً. لأن كل شيء، مرة أخـــرى، إنما يتوقف علـــى يعقـــوب.

ولاسكاريس يُعَرِّفه وفقاً لموضة بعث مصر التي هي الأيديولوجيـــة الرسمية للحملة:

«إنه حفيد أولئك المصريين الذين مازالوا يثيرون دهشة العــالم بآثارهم: يا لها من ذكريات تستحضرها هذه الآثار! باختصار، يــا لها من حضارة تبوح بها هذه الأهرامـــات، هــذه المعــابد، هــذه البحيرات، هذه القنوات، للشعوب التي تخيلتها !».

ومن ثم يمكننا أن نرى في لاسكاريس واحـــداً مــن أســلاف النزعة الفرعونية السياسية التي عرفتها أواخر القرن التاسع عشر.

ويرد عليه مينو بأنه ليست لديه أية ثقة في الأقبــاط. وعندئــذ يواصل لاسكاريس مشروعه القبطي بعد تعديله وذلك في رسالة إلى القائد العام مؤرخة في ٢٩ فروكتيـــدور مــن العــام الثــامن (١٦ سبتمبر/ أيلول ١٨٠٠). وهو يواصل الدفاع عن صديقـــه ويقــترح هذه المرة إرساله، مع بعض الجنود الفرنســـيين وخمســـة آلاف أو ستة آلاف من المسيحيين الشرقيين إلى النوبـــة لإنشـــاء مســـتعمرة دائمة هناك ومربحة بالنسبة لفرنسا. فهناك سوف يكـــون للحــزب المصري الممالئ لفرنسا قاعدة راسخة في حالة جــلاء الفرنســيين عن مصر وسوف يكون لاسكاريس هو مفوض الحكومة الفرنســية هناك، ومن ثم فإن عودة الفرنسيين سوف تكون سهلة.

والحال أن مينو، الذي يُكِنُّ له قدراً من التعاطف، يعينه، في الشهر نفسه، مديراً للرسوم الالتزامية. ويواصل لاسكاريس الاصرار على مشروعه النوبي ويرسل إلى بونابرت مرثية يعقوب، «إلى روح الجنرال ديزيه». وخلافاً لنص التقديم المنشور في الأمر اليومي، فإن المعجم المستخدم والاشارات الضمنية إلى العصر القديم الكلاسيكي إنما تسمح بما هو أكثر من افتراض أن كاتبها الحقيقي هو لاسكاريس:

«إلى الأبد ستحيا في الأجيال القادمة وفي عرفاني بالجميل، إن طيفك العزيز يرفرف بالفعل في رحابة الفضاء مع طيف أبطال العصر القديم، وهو يتحد بالفعل مع روح بونابرت الحارسة، ومن هذا الاتحاد الذي يحرك شديد رهبة الأعداء وشعوب الأرض سوف تولد رفاهية وتمدن الشرق».

وبالمثل، في مؤتمر فرساي، فيما يتعلق بأقوال فيصل، سوف يكون بالإمكان التساؤل عما قاله بالفعل وما أضافه ترجمانه ت. أ. لورانس. فكثيراً ما يتصرف المغامر كمحتال غشاش.

والحال أن موت مراد بك يسمح للاسكاريس بمعاودة الكلام عن مشروعه: ففي ٢٦ أبريل/ نيسان ١٨٠١، يقترح إرسال يعقوب إلى صعيد مصر للمصالحة بين الفصائل المملوكية المتنازعة، وهو

أمر من شأنه أن يسمح له بتوجيه نشاطاتها. ويعترف لاسكاريس بأنه يتكلم عن هذا الموضوع دون أن يتشاور فيه مع القبطي، ويعيد من جديد طرح فكرته عن الحزب الفرنسي في حالة الجلاء عن مصر.

وفي اليوم نفسه، تتم ترقية يعقوب إلى رتبة قائد لواء، بسبب الخدمات التي قدمها إلى الفرنسيين. وهو أول أجنبي يصعد إلى هذه الرتبة في جيوش الجمهورية. كما ينظم للجنرال بليار، قائد القاهرة، شبكة تجسس ويعتزم مد شبكته إلى سوريا.

وعلى أثر نزول الإنجليز والانتكاسات الفرنسية، يجد جزء من الجيش الفرنسي نفسه محاصراً بشكل تدريجي في القاهرة بينما ينسحب مينو إلى الإسكندرية. وبدلاً من الاستسلام للإنجليز، يفكر لاسكاريس ويعقوب وبعض الاستعماريين الآخرين ومن بينهم المستشرق جان جوزيف مارسيل في تحقيق هذا الانسحاب الشهير إلى النوبة والعزيز على قلب الفارس المالطي السابق. وفي نهاية الأمر يفشلون ويشاركون في استسلام الجيش الفرنسي. وهذا الاستسلام ينص على رحيل المصريين الأكثر تورطاً مع الفرنسيين إلى فرنسا. ويحاول العثمانيون إقناع **المعلم** بالبقاء في خدمتهم، لكنه يرفض ذلك. ومن ثم فهو يركب، بصحبة لاسكاريس دائماً، السفينة

الإنجليزية **لا بالاّس**، المكلفة بنقل المصريين إلى فرنسا، في ١٠ أغسطس/ آب ١٨٠١.

ومنذ إقلاع السفينة، يجري قبطانها، جوزيف إدموندز، لقاءات عديدة مع **المعلم**، حيث كان لاسكاريس يقوم بالترجمة. وسوف يلخص إدموندز لرؤسائه مناقشاته على النحو التالي:

«قال لي إنه يرى أن أية حكومة مهما كانت إنما تعتبر أفضل لبلاده من حكومة الأتراك؛ وإنه قد انضم إلى الفرنسيين بدافع من الرغبة الوطنية في تخفيف معاناة مواطنيه؛ [...] وإنه مازال يتطلع، بالاستعانة بالدول الأوروبية، إلى عمل الخير لبلاده وهو يتصور أن رحلته إلى فرنسا سوف تؤدي إلى هذه النتيجة. وقد دفعه الفرنسيون إلى تصور أن بلدهم يتمتع بقوة مهيمنة في أوروبا، وهو لا يكاد يعلم شيئا عن قوة إنجلترا البحرية العظمى، على أنه يدرك أن رغبته في أن يرى مصر متمتعة بالاستقلال، هي رغبة محكوم عليها بالفشل، في غياب تأييد من جانب بريطانيا العظمى. وقد قال لي صديقه لاسكاريس [...] الذي تولى ترجمة كلامه في محادثاتنا، إن الجنرال المعلم يعقوب هو رئيس بعثة حصلت على سلطات أو عينت من جانب أعيان مصر بهدف التفاوض مع دول أوروبا على استقلال هذا البلد»[٣].

ويموت يعقوب بعد أيام قليلة من ركوب البحر، وقد جرى اتهام العثمانيين بأنهم قد دسوا السم له قبل رحيله.

ولا تخمد عزيمة لاسكاريس من جراء ذلك ويكتب مذكرة موجهة إلى الإنجليز يستعيد فيها الأفكار الرئيسية التي تم الإعراب عنها في المحادثة: على إنجلترا حماية مصر مستقلة تشتري المنتجات الإنجليزية، فهي ليست غير قوة زراعية. وسوف تكون الحكومة الجديدة سلطة مستقرة، تستند إلى سكان معترفين بالازدهار المستعاد. وسوف تتحرك في اتجاه استعادة **الحضارة** في مصر. ويقترح لاسكاريس إشراك «**البعثة المصرية**» في المفاوضات العامة التي لابد وأن تتلو انتهاء الأعمال الحربية للائتلاف الثاني.

ويشير مجمل الأفكار الرئيسية المبينة إلى أن واضعها هو الفارس المالطي السابق: فمعجمها هو معجم الاقتصاد السياسي لأواخر القرن الثامن عشر، ومفهوم التمدن [الحضارة] هو الذي قدم التبرير الأيديولوجي لعمل بونابرت في مصر. ومن الصعب للغاية معرفة ما كان بوسع يعقوب أن يفكر فيه بالفعل، والشيء المهم هو أنه للمرة الأولى يُعْزَى معجم سياسي غربي إلى أحد الشرقيين، وسوف يتعين الانتظار عشرين سنة حتى يستخدم محمد علي بدوره مفهوم التمدن.

ويأمل لاسكاريس في أن يبقى على اتصال بالإنجليز. والواقع أن تقرير القبطان إدموندز سوف يهجع لأكثر من قرن من الزمان في الأرشيفات الإنجليزية إلى اللحظة التي سوف يكتشفه فيها جورج دوان وينشره.

رفض بونابرت

بما أن لاسكاريس قد فشل مع الإنجليز، فهو يتجه إلى الفرنسيين. وهو يجمع المنفيين المصريين في المحجر الصحي ويقدم إلى السلطات الفرنسية مشروعه عن البعثة المصرية. وهو يوقع المشروع باسم نمر أفندي. ويرسل عدة رسائل في فانديميير وبروميير من العام العاشر (أواخر سبتمبر/ أيلول وأوائل نوفمبر/ تشرين الثاني ١٨٠١) لكنه لا يتلقى أي رد سياسي. ويُفاد باستلامها لكن القرار الوحيد المتخذ هو تكوين وحدة فرسان، هي الوحدة المسماة بقناصة الشرق، اعتماداً على المنفيين من مصر.

وعلى قائمة فرسان مالطة، يكتب بونابرت في ذلك الزمن:

«لاسكاريس، الأَخَوَان: الأول مجنون والآخر رَفَضَ حمل السلاح ضد الجيش ودخل السجن»[٤].

ومن المؤكد أن المجنون هو صاحبنا. وتتمة مسلكه لن تكــذّب هذا الرأي. وبما أنه قد ملّ من الانتظار في طولون، فقد ذهب إلــى باريس ومعه توصيات من شخصيات مهمة في الحملة مثل اســتيف ومينو، وهو يحاول الحصول علــى موعــد مــع القنصــل الأول [بونابرت]. ومن المرجح أنه قد فشل في ذلك.

وبين مشروعات لاسكاريس الجديدة، نجد استعادة لأفكاره عــن مصر المستقلة ومطالبات بممتلكات عائلته في مالطة وطلباً بتعيينــه مفوضاً لفرنسا في جدة لتنظيم تجارة فرنسا في البحر الأحمر. بــل إنه يقترح على تاليران في ١٤ فلوريال من العام العاشر (٤ مــايو/ آيار ١٨٠٢) إعادة تكوين الإمبراطورية البيزنطيــة بكــل بســاطة لحساب حفيد الأباطرة لاسكاريس ـــ أي لحسابه هو شخصياً: فـــهو يطالب بأن تحصل له فرنسا، بما يتعارض مع الحمايــة الممنوحــة إلى الباب العالي، على أرض تمتد من ترييزوند [طرابزون] إلـــى حدود جورجيا. وهذه الدولة الجديدة يمكن أن تكون قاعدة انطـــلاق لزحف جيش فرنسي إلى الهند.

ومن الواضح أن القنصل الأول لا يرد على هذا الاقتراح بــالغ الشطط. إلاّ أنه يجب ملاحظة أن الاقتراح يندرج في تيـــار حــب الهيللينية المعروف في أواخر القرن الثامن عشر والذي لـــم يكــن

بونابرت عديم الإحساس به خلال فتح إيطاليا. ثم إن لاسكاريس يتصرف دائماً باسم مسيحيي الشرق.

وإقامته في فرنسا عبارة عن فشل تام. بل إنه قد فقد المنصب الرسمي الذي كان يحتله في مصر. وعندئذ تبدأ الفترة الأكثر إثارة للجدل في حياته.

العودة إلى الشرق والمشروع اللبناني

وهو يرجع إلى الشرق في تاريخ غير محدد. وهو متزوج. ووفقاً لميريون، وهو طبيب وصاحب مذكرات عن الليدي ايستر ستانهوب، فإن لاسكاريس قد قال لها إنه قد تزوج في مصر جارية جورجية، هي الست مريم، التي كانت ضمن حريم مراد بك(٥). وقد زعم الفارس المالطي السابق أنها كانت بنت خالة سليمان، باشا عكا، خليفة أحمد باشا الجزار الرهيب.

وهو لا يعاود الظهور في الوثائق إلاّ في عام ١٨٠٦. ورواية لاسكاريس التي نقلها ميريون تتحدث عن رحلة إلى جورجيا، مسقط رأس زوجته، حيث يجري الزعم بأنه كان يعتزم إنشاء استثمارة زراعية. ويقال إنه قد اعتقل من جانب الروس بتهمة التجسس وسُجِنَ في سان بطرسبورغ. ثم يقال إنه جرى الإفراج

عنه بعد ذلك ثم استقر في حلب حيث كان في عام ١٨١١ مدرساً بإحدى المدارس ومعلماً للموسيقى[٦].

وما يجهله ميريون، هو ما حدث في عام ١٨٠٦. ففي ذلك التاريخ يتواجد لاسكاريس في سوريا. وهو يصبح سكرتيراً لتايتبو، مسئول قنصلية فرنسا في صيدا التي أعيد افتتاحها للتو. وهو يظهر في رسالة من تايتبو إلى تاليران، بتاريخ ٢١ بريريال من العام الرابع عشر (١٠ يونيو/ حزيران ١٨٠٦) باعتباره مكلّفاً ببعثة رسمية إلى القسطنطينية. ويبدو أنه لم يذهب إلى هناك[٧].

وبما أنه قد استعاد بالكاد منصباً رسمياً، فإنه لا يستطيع الامتناع عن استئناف نشاطاته السياسية. وهو يحاول دائماً استخدام مسيحيي الشرق: وهم الموارنة هذه المرة. ووسيلة عمله الجديدة هي القس لويجي جوندولفي، العازري، رئيس المدرسة الاكليريكية في عنطورة وممثل البابا في جبل لبنان. والحال أن جوندولفي هو الوسيط بين الفرنسيين وأمراء الجبل، وذلك بسبب نفوذه الكبير لدى الأمراء. وهدفه هو:

«إعادة ميناء بيروت إلى لبنان ومساعدة هذا الجبل على نزع نير باشا سوريا وفلسطين. ويجب على الأمير بشير، عبر رسالة موجهة إلى إمبراطورنا، أن يسارع إلى حمايته»[٨].

ولحساب جوندولفي، يحرر لاسكاريس **وجهة نظر سياسية حول جبل لبنان** مؤرخة في ١٠ يونيو/ حزيران ١٨٠٦[٩]. وهو يزعم الكلام باسم الأمير بشير. ويعيد إلى الأذهان:

«تعلقهم [الأمراء] الكبير، وكذلك تعلق كل الشعب في عمومه، بالأمة الفرنسية منذ زمن سحيق، وهو التعلق الذي برهنوا عليه في كثير من المناسبات، حيث أراق آلاف من الموارنة دماءهم من أجلها، طالبين في مقابل ذلك الحماية من جانب بونابرت الخالد الذي جعل من القضاء على الاستبداد مبدأه».

والهدف واضح:

«إنه يتلخص في حماية سكان جبل لبنان، حلفاء فرنسا الأوفياء، من استبداد باشا عكا، وبالإمكان تحقيق هذا الهدف بطريقتين، الأولى هي أن تأخذ حكومة فرنسا لبنان تحت حمايتها المباشرة أو، إذا استحال ذلك، أن تعمل فرنسا على وضع لبنان تحت التبعية المباشرة للقسطنطينية، دون تدخل من جانب باشا عكا (...). والنقطة الثانية، الأكثر أهمية بكثير بالنسبة لفرنسا، هي إعادة ميناء بيروت إلى لبنان».

فبمجرد إعادة بيروت إلى لبنان، سوف يصبح هذا الميناء محور تجارة المشرق وقاعدة بحرية وعسكرية لفرنسا. وسكان لبنان لا ينتظرون غير وصول الفرنسيين حتى يهبوا إلى الثورة.

ويعرف لاسكاريس جيدا أنه في عام ١٧٩٩، خـــلال الحملــة [الفرنسية] على بلاد الشام، خيب هؤلاء السكان أمل بونابرت ولـــم يتحركوا خلال حصار عكا. والواقع أنه يحمل المسئولية عن ذلـــك للدروز الذين منعوا المسيحيين من التحالف مع الفرنسيين.

نابليون والشرق

يستفيد هذا المشروع الجديد من سياق ملائم. فقد كسب نـابليون للتو معركة أوسترليتز في حين أن هزيمة الطرف الأغر تحيل إلـــى موقف عام ١٧٩٨: استحالة مهاجمة الجزر البريطانيـــة مباشـــرة، ومن ثم التوجه نحو استراتيجية تستهدف طريق الهند. وتاليران فـــي هذا الإطار نصير لتقسيم للدولة العثمانية.

والواقع أنه يرسل في العام نفسه، استفسارا إلى تـــايتبو حـــول الدروز والموارنة[١٠]. وبما أنه غير مؤرخ للأسف، فإنه لا يســـمح بمعرفة ما إذا كان مترتبا على مذكرة لاسكاريس وجوندولفي.

وعن السؤال الخاص بأهم أماكنهم من حيث قوتها وموقعـــها، يجيب تايتبو:

«جونيه هي المكان الأهم لكي تكون مركز المسيحيين والموقـع الذي يجب اختياره للانزال».

أما فيما يتعلق بمواقف السكان، فهو يؤكد: «إذا جاء جيش فرنسي إلى هذه الأنحاء، فسوف يهجر الدروز ممتلكاتهم ويرحلون إلى فارس، أما الموارنة فإنهم، من باب المحبة، بل وأجرؤ على القول من باب العشق، سوف يتصدروننا، وسوف يفعل المتولية الشيء نفسه، ولكن من باب حساب المكاسب».

ويتعين أن ندرك جيدا أن نابوليون لا يتصور هذا الإنزال الشرقي إلا بوصفه بداية زحف على الهند. فهو ليست له غايات مباشرة في تلك الأراضي. وعيب مشروع لاسكاريس هو أنه يستثير معارضة مباشرة من جانب الباب العالي، وهو خطأ كلف الحملة الفرنسية على مصر الكثير.

والحال أن الباب العالي، في عام ١٨٠٦ هذا، يتقارب مع الإمبراطورية النابوليونية. وردا على الانفتاحات العثمانية، يستجيب نابوليون بتعيين سيباستياني، في ٢ مايو/ آيار ١٨٠٦، سفيرا لدى القسطنطينية. وهكذا نكون بازاء عودة إلى سياسة فيرجان الخاصة بتعزيز الدولة العثمانية. والتعليمات الصادرة إلى السفير الجديد واضحة:

«إنني لا أريد اقتسام إمبراطورية القسطنطينية بالمرة، وحتى لو عرضوا عليَّ ثلاثة أرباعها، فإنني لا أريد ذلك بالمرة. إنني

أريد تعزيز وتوطيد هذه الإمبراطورية العظمى واستخدامها على نحو ما هي عليه كقوة معارضة لروسيا»[١١].

والنتيجة المباشرة لذلك هي دخول الدولة العثمانية الحرب ضد روسيا في أواخر العام. أمَّا إنجلترا التي تنضم إلى الروس، فهي تلقى هزيمتين متعاقبتين في مرمرة وفي مصر في عام ١٨٠٧.

ومن ثم يمكن لنابوليون استئناف مشروعه الخاص بالزحف على الهند، ولكن بالتعاون مع الباب العالي، هذه المرة. وجيش مارمون، المرابط في دالماسيا، مستعد لدعم العثمانيين في البلقان، بل هو مستعد في نهاية المطاف للمضي إلى ما هو أبعد من ذلك. ويجري عقد اتصالات مباشرة مع فارس سعياً إلى الحصول على تصريح بمرور جيش فرنسي متجه إلى الهند.

ومذكرة هوتيريف، رئيس الشعبة السياسية بوزارة العلاقات الخارجية، تحدد بجلاء في عام ١٨٠٦ تفكير الإمبراطور:

«من وجهة نظر أكثر كمالا عن هدف فرنسا النهائي، أقصد وجهة النظر التي تقدم منظورا لحملة في الهند، فإن مشروع الاقتسام، بعيدا عن أن يقدم تسهيلات لهذه الحملة، ليس من شأنه إلا أن يجعل تنفيذها أصعب. والواقع أن هذا المشروع يميل إلى أن

يطلق على آسيا جماعة سكانية محاربة وغاضبة سوف تؤدي محنها واستياءاتها إلى إشعالٍ جديد في هذا البلد لجميع مشاعر التعصب، ولن يكون من شأن هذه المشاعر التي توجهها سياسة إنجلترا غير زيادة العراقيل أمام زحف الجيش المشترك»[١٢].

وهذا لا يتناقض مع إرسال رسل إلى الشرق، مكلفين باستكشاف طريق الحملة المحتملة نحو الهند. لكن هدفهم تقني أساساً: فهو يتمثل في التعرف على العقبات الجغرافية والبشرية وخاصة على المواقع الحصينة. وفي هذه البعثات، لا يريد نابوليون «حالماً أو أديباً أو مثيراً للاعتراضات». فهو يحتفظ بذكرى جد سيئة عن الوصف الخادع لتحصينات عكا والذي قدمه فولني، وهو الوصف الذي قاده إلى الاستخفاف بقوة الموقع. وتعريفه للجاسوس المثالي قاطع:

«إن ما أحتاج إليه هو مهندس جيد، عقل دقيق، نشيط، يستطيع أن يرى ويسمع ويراقب، يستطيع أن يزن الإيجابيات والسلبيات، ويكون أيضاً جندياً قادراً على تقدير قوة موقع من المواقع وجوانب ضعفه، ويعرف احتياجات جيش في حملة، ويرى ما إذا كان بالإمكان تلبيتها في الساحة وإلى أية درجة»[١٣].

والحال أن لاسكاريس، بالرغم من الجانب النبوئي لمشـــروعه والذي يستشرف تطور لبنان، لا يمكن من ثم تصنيفه إلاً في خانـــة الحالمين والأدباء. إنه يتمنى أن يكون في مركز **اللعبـــة الكـــبرى**، فيما هو لا يوجد في الواقع إلاً في هامشها. وهذا فشل جديد.

ويبدو أنه في هذه اللحظة يفكر من جديد فـــي الاتجـــاه إلـــى الإنجليز. وهذا على أية حال هو ما يؤكده الفونس جيـــس، قنصـــل فرنسا في طرابلس، لتاليران، فـــي ٢٥ أغســـطس/ آب ١٨٠٧[١٤]. كما أن القنصل يجد لدى لاسكاريس علامات جـــد واضحـــة علـــى الاختلال العقلي ويتحدث عـــن احتمال إقامة عند الوهابيين. فـــلأول مرة، قد يفكر لاسكاريس في آخرين غير مسيحيي الشرق.

وهو يختفي من الوثائق على مدار عدة أعوام. ووفقا لميريون، يقال إنه كان مدرسا في إحدى المدارس في حلب. كما أنه يتنقل فـــي المنطقة كبائع جوال. وفي عام ١٨١١، يرتاب قنصل فرنســـا فـــي صيدا في أنه عميل إنجليزي[١٥]. والأرجح أن تنقلاته الكثـــيرة قـــد حيرت كثيرين من الناس في أمره وذلك في الوقت الذي كـــان فيـــه عملاء فرنسيون وإنجليز حقيقيون يجوبون المنطقة، مـــع علاقـــات حميمة غالبا كالعلاقات بيـــن الكولونيـــل بوتـــان والليـــدي ايســـتر ستانهوب.

والحال أن الاتصال بلاسكاريس هو أحد أول شواغل الليدي ايستر ستانهوب، التي وصلت إلى سوريا في عام ١٨١٢. وهي تكلف ميريون بالعثور عليه، وهو ما يتم في ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني في نيبيك حيث كان لاسكاريس يقيم مع زوجته. وهي تتخذه ترجمانا في رحلتها الأولى إلى بالميرا في يناير/ كانون الثاني ١٨١٣. وأهدافها أبعد من ذلك. وكما هو معروف، فهي تريد الانخراط في سياسة عربية. فالعرب بالنسبة لها أحد مفاتيح طريق الهند والوهابيون يفتنونها. وهي تعتقد أن بوسع لاسكاريس أن يكون مفيدا لها. وهي توصي به لدى السلطات الإنجليزية: فهو بالرغم من تقلباته وبفضل درايته التامة بالعربية، سوف يكون عميلا استثنائيا: «ثم إن ذلك سوف يكون عملا إنسانيا حيال واحد كان رجلا عظيما»[١٦].

وبالميرا جد مهمة بالنسبة لليدي ايستر ستانهوب. فهي تعتقد أنه من خلالها سوف يتسنى لها الاتصال بالوهابيين. وهي تحلم بأن تكون زنوبيا الثانية. وهذا الحلم يجد تشجيعا له في التيار المسياني البروتستانتي في أواخر القرن الثامن عشر والذي يتنبأ باجتماع اليهود في الأرض المقدسة، كمرحلة ضرورية لتحقق نهاية الأزمنة. والحال أن ريتشارد برازرس، أحد أصحاب الرؤى هؤلاء، قد تنبأ لها بأنها «سوف تذهب يوما ما إلى القدس وسوف

تقود الشعب المختار، وبأنه عند وصولها إلى الأرض المقدسة، سوف تحدث في العالم تغيرات كبرى وبأنها سوف تقضي سبع سنوات في الصحراء»[١٧].

ووفقا لميريون، لم يزر لاسكاريس بالميرا قط[١٨]. والواقع أن لاسكاريس يواصل عمله كبائع جوال في قبيلة عنزة التي يتزعمها مهنا الفاضل. وعندما يرجع ميريون من بالميرا، في ٢٥ يناير/ كانون الثاني ١٨١٣، يقدم إليه لاسكاريس حلبياً مسيحياً، هو فتح الله «الذي لابد أن درايته باللغة وبمهنة البائع الجوال مفيدة له»[١٩].

ويظل لاسكاريس لبعض الوقت في صحبة ابنة أخت بت التي تدرك الانحطاط السيكولوجي للمغامر: «إنه يهتاج دائماً، لكنه لم يعد ولن يكون أبداً صالحاً لشيء»[٢٠].

أزمير ومصر

في أواخر عام ١٨١٣، يهجر راعيته وأسرته ويرحل إلى أزمير. وهناك يتردد على الفرنسيين ويقدم نفسه باعتباره بونابرتياً متحمساً في عصر كانت الرياح قد بدأت تتحول فيه بوضوح لصالح نابوليون ... وهو يحصل على منصب مدرس في أزمير ويمكنه أن

يأمل في شيء من الاستقرار. وفي أبريل/ نيسان ١٨١٦، يلتقي من جديد في هذه المدينة باثنين من الرفاق الذين سبق له معرفتهم في مصر، منفيين بعد الأيام المائة، هما سافاري، دوق دو روفيجو والجنرال لالمان. ويفكر الرجال الثلاثة في الاستقرار في هذا الثغر لكن القلاقل السياسية الدائمة في المنطقة تزعجهم. والحال أن دروفيتي، وهو في ذلك العصر قنصل سابق لفرنسا وواحد من الرجال الذين يثق فيهم محمد علي، إنما يسعى إلى تجنيد رجال ممن كانوا في مصر خلال زمن الحملة الفرنسية لحساب الباشا. وهو يتقرب إليهم. إلا أنه بما أن سافاري ولالمان قد اضطرا إلى التعهد للإنجليز بعدم الذهاب إلى مصر، فإن لاسكاريس يرحل بمفرده. وبعد إقامة قصيرة في سوريا، حيث يهرب من زوجته التي تبحث عنه، يصل إلى الإسكندرية.

وهو يأمل في أن يستغل علاقاته السورية لكي يقترح وساطة بين باشا مصر والوهابيين لكن الموقف العسكري مؤات للمصريين ولم يعد الوقت وقت الديبوماسية.

وينجح دروفيتي في الحصول على موافقة الباشا على تعيين لاسكاريس مربيا لابنه إسماعيل، الذي سوف يموت بعد ذلك ببضع سنوات في السودان. ومن المرجح أن لاسكاريس، في أواخر حياته، كان من الوارد أن يعتقد أنه، بفضل تلميذه، سوف يلعب

أخيراً دوراً على المسرح السياسي الشرقي. وهو يموت في أبريل/ نيسان ١٨١٧ في ظروف غامضة. ووفقاً لقنصل فرنسا فإنه: «يُخشى من أن النفوذ الذي بدأ السيد دو فنتيميل في ممارسته على الباشا الشاب قد أثار القلق وأنه قد مات مسموماً»(٢١).

مولد أسطورة

ومن ثم فحياة لاسكاريس حياة فاشلة. وموته في نهاية الأمر لا يترك غير صدى طفيف ودوره في التاريخ يمكن أن يبدو هيناً. لكن الأسطورة كما هي الحال غالباً مع المغامرين، سوف تؤدي تدريجياً إلى حجب الواقع.

والمسئول الرئيسي عن الأسطورة ليس أحدا آخر غير لامارتين. ففي عام ١٨٣٣، خلال رحلته إلى الشرق، كان بسبيله إلى أن يخيم في الجليل وهو يحلم بأن يبقى في هذه المناطق لكي يتنقل بين مصر والخليج الفارسي. وهو لا يتمكن من عمل ذلك بسبب مسئولياته العائلية. وعندئذ يفيده ترجمانه، السيد مازوييه، بأن رجلا قد قام بهذه الرحلة، هو السيد دو لاسكاريس إلا أن من المؤسف أن مذكراته عن الرحلة قد اختفت. والحال أن لاسكاريس هذا، ظل نابوليون، هو النتاج الأكمل لاستشراق عصر التنوير(٢٢):

«لقد أدرك ما هو أكثر من ذلك: فقد أدرك أن أعظم عمل يمكن أن يحققه بطله قد لا يكون إعادة السلطة في أوروبا؛ (...) وقد استشعر أن آسيا تتيح مجالاً أوسع بكثير للطموح الإحيائي لبطل من الأبطال؛ وأنه هناك يجب أن يقوم بالفتح والتأسيس والإحياء معتمداً على جماهير أضخم مائة مرة؛ وأن الاستبداد، قصير العمر في أوروبا، سوف يكون طويلاً وأبدياً في آسيا؛ وأن الرجل العظيم الذي سوف يجلب التنظيم والوحدة إلى آسيا سوف يفعل ما هو أكثر بكثير مما فعله الاسكندر وأكثر بكثير مما لم يتسن لبونابرت عمله في فرنسا. ويبدو أن محارب [حملة] إيطاليا الشاب [بونابرت] والذي كان خياله مشرقاً كالشرق وغامضاً كالصحراء وعظيماً كالعالم، قد أجرى في هذا الصدد محادثات سرية مع السيد دو لاسكاريس، ووجّه بارقة من بوارق فكره صوب هذا الأفق الذي حدده له قدره»[٢٣].

ومن ثم فلاسكاريس هو رجل نابوليون في الشرق. وعين تجسيد الحلم الشرقي.

ويكشف مازوييه للامارتين أن أحد رفاق لاسكاريس، وهو فتح الله الصغير، يحوز سرداً كاملاً لمغامرة لاسكاريس مكتوباً بالعربية، استناداً إلى يومياته، وهو مستعد لبيعه. ويهرع لامارتين إلى اغتنام الفرصة، فيشتري المخطوط ويطلب من مازوييه ترجمته

ويعيد كتابته بلغة أدبية أكثر، استعداداً لنشره في نهاية رحلته إلى الشرق.

ووفقاً للنص الذي نشره لامارتين، فقد تعرف فتح الله على لاسكاريس في أواخر عام ١٨٠٩ في حلب. وقد اتفق هذا الأخير معه على مساعدته في رحلاته من عام ١٨١٠ إلى عام ١٨١٣. ويكشف له لاسكاريس شيئاً فشيئاً أنه مكلف من نابوليون بتنظيم ثورة عربية كبرى لتسهيل مرور جيش فرنسي إلى الهند. ويجب عليه توحيد جميع القبائل العربية، من صحراء سوريا إلى حدود فارس. والسرد صارخ الألوان وحافل بالتفاصيل عن معارك بين الوهابيين والأتراك والقبائل العربية. وفي نهاية الأمر، يتحد جميع العرب ويستعدون للزحف ضد الأتراك لكن انهيار الإمبراطورية النابوليونية يؤدي إلى هجر المشروع.

وتظهر في السرد شخصيات تاريخية معروفة مثل كورانسيه، قنصل فرنسا في بغداد ومؤلف أول تاريخ عن الوهابيين، والليدي ايستر ستانهوب التي تظهر هنا كخصم للاسكاريس، ومهنا، زعيم عنزة، وسعود نفسه وغيرهم. وقد ذهب لاسكاريس إلى أزمير لكي يتحادث مع رسولي نابوليون، سافاري ولالمان.

وبفضل لامارتين، يصبح لاسكاريس ما حلم بأن يكونه: المغامر في مركز **اللعبة الكبرى**. وفي وقت كانت فيه الأسطورة

النابوليونية في أوجها، يصبح [لاسكاريس] أحد أبطالها الأكثر شهرة. وحكايته الأسطورية، التي حللها أوريان، سوف تلهم مشاركين آخرين في **اللعبة الكبرى** مثل بالجريف أو بلنت. وسوف يتذكرها الفرنسيون في زمن الثورة العربية خلال الحرب العالمية الأولى: إنهم سوف يقولون إن الإنجليز قد استمدوا فكرتهم عن الثورة العربية من ذكرى لاسكاريس !

وفي عام ١٨٤٤، يرتب لامارتين شراء المكتبة القومية للمخطوط إلى جانب مؤلفات أخرى لفتح الله[٢٤].

مصداقية فتح الله

تتنافى رواية فتح الله تماماً مع مؤشرات المصادر الأخرى. وتواريخها تتعارض تماماً مع ما نعرفه مثلاً عن تحركات الليدي ايستر ستانهوب. ثم إن ميريون، أحد الشهود الأحياء، قد سارع في مؤلفاته إلى التشهير بالاحتيال.

وغداة ظهور كتاب لامارتين، يتجه المستشرق العظيم جول مول إلى تكليف فيلجانس فرينيل الموجود آنذاك في مصر وفي بلاد العرب بالتحقق من صحة رواية الأحداث. وينجز فرينيل المهمة الشاقة التي تتمثل في إعادة ترجمة جزء من النص إلى اللغة

العربية وتقديمه إلى الزعماء الوهّابيين المحتجزين في مصر. ويفضح هؤلاء الزعماء استحالة وقوع أحداث تضمنها السرد والشخصيات الوهمية واختلاقات أحداث لم تحدث قط. ويرسل فرينيل النصل العربي للردود إلى مول الذي يودعه في المكتبة القومية. ولما كان مول لا يريد تكدير لامارتين، فإنه يفضل انتظار موت الشاعر والسياسي لكي ينشر ترجمة فرينيل الفرنسية في **الجورنال آزياتيك**، في يناير/ كانون الثاني ١٨٧١، مصحوبة بسرد بالغ الإثارة لرحلة فرينيل إلى الحجاز.

والحال أن تحسب مول ونشر نصل فرينيل في مجلة لم يكن الجمهور الواسع يطلع عليها البتة، وفي سنة رهيبة تماماً، قد أديا إلى مرور التفنيد دون أن يلحظه أحد تقريباً. وهكذا فإن الأسطورة المشوهة غالباً تتنقل من كتاب إلى آخر حتى أيامنا.

ومن المؤكد أن فتح الله قد عرف لاسكاريس، وميريون يذكر ذلك. كما نعرف أنه قد خدم، في السنوات التالية، عديدين من الرحالة الأوروبيين، خاصة الفرنسيين، ثم إنه كانت لديه محاولات للكتابة، ونحن نعرف ذلك من مخطوطات أخرى.

كما أن سياق ثلاثينيات القرن التاسع عشر بالغ الدلالة: إنه العصر الذي يفتح فيه إبراهيم باشا سوريا لحساب والده.

والأوروبيون، الذين يمرون بيقظة سافرة للقوميات، إنما يفسرون الأحداث من زاوية نزعة قومية عربية واستقلال عن الأتراك. والحال أن من الواضح أن سكان سوريا يجهلون بالكامل، في تلك اللحظة من تاريخهم، كل شعور عروبي. وبالمقابل، فإن أولئك المتصلين بالأوربيين، وأولهم إبراهيم باشا، يعرفون أن مثل هذه الأفكار تروق لمحادثيه هؤلاء الذين توجد حاجة سياسية إليهم.

وأعمال عملاء نابوليون الحقيقيين، الذين يستكشفون طريق الهند، كانت معروفة لدى الجميع. ولم يكن موت بوتان نموذجا للحذر[٢٥].

أما محمد علي، في دعايته في فرنسا، فقد قدم نفسه بوصفه الخليفة المباشر لنابوليون في الشرق.

ومن ثم فليس من المستبعد أن فتح الله قد قام بتوليف هذه العناصر المختلفة، معتمدا على الأرجح أيضا على إفضاءات لاسكاريس الخاصة بمشاريعه الماضية والمستقبلية على حد سواء. ومع أن النص كان موجها إلى جمهور فرنسي، فمن المرجح أننا بازاء واحدة من أوائل الإشارات إلى الثورة العربية في الأدب العربي، ومن هنا الأهمية الاسترجاعية للنص.

ولعبة الذهاب والإياب هذه نفسها تتكـــرر فـــي عـــام ١٩٢٤، عندما يكشف جورج دوان عن مذكرة البعثـــة المصريـــة؛ فـــالأثر التاريخي بالغ القوة: والمسألة ليست أكثر ولا أقل من ظهور موقـف مشابه للموقف في عام ١٩١٩، تشكيل وفد من أجل مؤتمر الصلـح. والشيء المهم يجيء من توقيع يعقوب: إنه أول مصري يتحدث عن الأمة المصرية في نص مؤرخ تاريخيا. والواقع أننا لا نجد الفكـــرة المصرية في عصر يعقوب.

وتشابه الموقف وقوة السابقة وواقع أنه قبطي إنما تجعل مـــن هذه الشخصية المنسية رائدا عظيما. والأقباط إلى اليـوم يتذكـــرون هذا الدور الواقعي التأسيسي الذي يسمح بنسيان التعاون مع فرنسيي الحملة. على أن بعض المصريين يطرحون على أنفسهم مسألة دور لاسكاريس(٢٦).

ومن ثم فإن لاسكاريس، عبر يعقوب وفتح الله، هو الذي أدخـل عند الشرقيين فكرة الاستقلال المصري والثـــورة العربيـــة [ضـــد الأتراك].

×

× ×

ما هي أسباب كل هذه المشاريع الاستشرافية التي نجدها عند لاسكاريس والمحيطين به ــ قناطر الدلتا، فتح السودان، استقلال مصر، الحماية الفرنسية على لبنان، الثورة العربية بل والمشروع الصهيوني ؟

إنها من نوعين. فأولا، في بداية القرن التاسع عشر كما بعد قرن واحد فقط، تشارك الدولة العثمانية في حرب يمكن أن تسمى عالمية (فالمعارك في جميع القارات وفي جميع المحيطات)، والنتيجة أن مستقبلها يمكن أن يبدو مشكوكا فيه، ومن هنا توازي التساؤلات بعد قرن. وثانيا، صاغ الفكر الأوروبي لعصر التنوير شرقا لا يتماشى مع الشرق المباشر والمعاصر لكنه، مؤسسا على تحليل علمي، ليس سوى مستقبله. وهذا أحد الشروط الضرورية لوجود **اللعبة الكبرى**.

ولاسكاريس هو أحد أوائل من دخلوا ساحتها، وأول من ضاع فيها جسدا وروحا، وهو، بحكم عين الاستشرافات التي يحملها، أول من يهبها الحيوية في شكل أسطوري. وفي هذا، ليس له غير نظير واحد غالبا ما قورن به: ت. أ. لورانس.

الحواشي

(١) جميع الاستشهادات غير المشار إلى مصدرها مأخوذة مـــن الملـــف B.6 من أرشيفات فنسان العسكرية.

(2) Auriant, *La vie du Chevalier Theodore Lascaris,* Paris, 1940, p.35.

فيما يتعلق بالتسلسل الزمني جـــد المعقـــد لتنقـــلات لاســـكاريس، استخدمت مؤلفات أوريان مرشداً لي.

(٣) مجمل الملف نشره جورج دوران في عام ١٩٢٤ في القاهرة تحـــت عنوان:

L'Egypte independante, Le Projet de 1801.

مطبعة الـــ .I.F.A.O.

(4) Auriant, Op. Cit., p. 99.

(5) Alice Heneine, *Lady Esther Stanhope et Le Liban,* Beyrouth, 1983, I, p. 64.

يعد هذا الكتاب أساسياً، بالنسبة للجزء الثاني من حياة لاســـكاريس: فهو يستخدم مصادر يشير إليها أوريـــان دون أن يســـتخدمها مـــن الناحية العملية.

(6) Heneine, *Op. Cit.,* I, P. 66.

(7) Adel Ismail, *Documents diplomatiques et consulaires relatifs a l'histoire du liban et des pays du Proche-Orient du XVII^e siècle à nos jours,* Beyrouth, 1979, T III, pp. 42-43.

(8) Adel Ismail, *Op. Cit.,* III, p. 45.

(٩) النص عند أوريان، Op. Cit., pp. 110-113.

(10) Adel Ismail, *Op. Cit.,* III, pp. 49-52.

(11) Général Georges Spillmann, *Napoléon et L'Islam,* Paris, 1969, p. 190.

(12) Edouard Driault, *La politique orientale de Napoléon,* Paris, 1904, p. 390.

(13) Spillmann, *Op. Cit.,* p. 249.

من المؤسف أنه لا يقدم مراجع لهذه الاستشهادات.

(14) Heneine, *Op. Cit.,* I, pp. 61-62.

(15) Auriant, *Op. Cit.,* p. 117.

(16) Auriant, *Op. Cit.,* pp. 123-124.

(17) Heneine, *Op. Cit.,* I, p. 59.

(18) Heneine, *Op. Cit.,* I, p. 68.

(19) Heneine, *Op. Cit.,* I, p. 69.

(20) Auriant, *Op. Cit.*, p. 125.

(21) Edouard Driault, *La Formation de L'empire de Mohammed Aly, de L'Arabie au Soudan, 1814-1827,* Le Caire, 1927, p. 67.

(٢٢) حول هذه النظرة إلى الشرق من جانب التنوير و، بشكل خاص، حول أسطورة الرجل العظيم، انظر هنري لورنس: **الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم في فرنسا**، ترجمة بشير السباعي، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.

(23) Lamartine, *Voyage en Orient,* reedition de L'édition de 1855, II, pp. 274-248. Edition Aujourd'hui, Les Introuvables.

(٢٤) يعد المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق لنشر ولترجمة النص العربي، والمحرر هو السيد جوزيف شيلو. وسوف يكون هذا المشروع مفيدا لأنه سيسمح بتجنب الأخطاء الموجودة بالتأكيد من جراء الترجمة المزدوجة لطبعة لامارتين.

(٢٥) كان بوتان قد قتل في يوليو/ تموز أو أغسطس/ آب ١٨١٥ على أيدي العلويين. والحال أن الليدي ايستر ستانهوب التي كانت قد عقدت معه علاقات حميمة قد قررت الثأر له. وقد نجحت في عام ١٨١٦ في دفع سليمان باشا إلى تدابير قمعية استثنائية: لقد جرى تدمير قرية أو عدة قرى علوية وإعدام عدد من القرويين وسبي عدد من النساء في عام ١٨١٦.

(٢٦) خاصة شفيق غربال في: **الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١**، القاهرة، ١٩٣٢.

[٢]

لورانس في بلاد العرب

الفصل الأول

أصل بطل

«الرب يكره الخطيئة لكنه يحب الخاطئ»

هذه العبارة التي سوف تصدر عن أم ت. أ. لورانس في أواخر حياتها، بعد أكثر من عشرين عاماً من موت ابنها الشهير، اعتبرها كثيرون من كتاب سيرته واحداً من مفاتيح شخصية البطل. ومن المؤكد أن ساره لورانس، الابنة غير الشرعية، المنحدرة من وسط جد متواضع وإن كانت متعلمة، كانت لها مغامرة غير عادية إلى حد ما في نهاية القرن التاسع عشر هذه. فهذه المربية لأطفال بارونيتٍ ايرلندي، هو توماس تشابمان، تقع في غرام مستخدمها، وهو شريف غير مرتاح إلى مناخ بيته الذي تتحكم فيه زوجة متزمتة. ويقرر العاشقان الهرب إلى إنجلترا. وبما أن الزوجة ترفض الطلاق، فليس بوسعهما إضفاء الشرعية على حبهما.

وسوف يولد من هذا الارتباط خمسة أطفال، ثانيـــهم هــو تومـــاس ادوارد.

وتبدو شخصية الأب مسموحة. إلاّ أنه كان لابد له مـــن قــوةِ شخصيةٍ واضحة حتى يرضى بالسقوط الاجتماعي النســبي الــذي مثله هجر زوجة واتخاذ لقب جديد، هو لورانس. وبما أنه من عائلة أرستقراطية، فإنه يحيا دائماً كشريف ولا يهتم البتة بـــالعمل لكـــي يدبر لنفسه موارد إضافية حتى وإن كان نمط معيشته يتدهور بشـكل ملحوظ بعد هربه. ويجري تصويره عموماً على أنه شخص طيـــب ولطيف ربى أطفاله على احتقار المال.

ومن المؤكد أن الأم لها شخصية قوية. وبما أن ســـاره كـــانت عميقة الإيمان، فإنها لا تتحمـــل عـــبء لا شـــرعيتها المزدوجـــة. وحرصاً منها على تجنب نمائم الوسط المحيط بها، فإنها تحيا مــــع أسرتها حياة اجتماعية محدودة، أمَّا تربية الصبيان الخمسة ــ بـوب، ت. أ. ، وليام، فرانـــك وآرنولد ــ فهي تتم بالأحرى فـــي وســـط مغلق على نفسه.

إلا أنه، في عام ١٨٩٦، بعد الترحال لعدة سنوات فـــي ويلــز وفي سكوتلنده وفي فرنسا، تستقر أسرة لورانس في أكسفورد ســـعيا إلى ضمان تعليم مناسب للأبناء.

لا جدال في أن طفولته سعيدة
وقد رباه أبواه تربية تعد في
آن واحد صارمة، خاصة في
الشأن الديني، وليبرالية بالأحرى

بما أن لورانس طالب خارجي، فإنه يفلت من العالم الخـــاص للداخليات الإنجليزية، حيث يتربى جزء كامل من النخبة البريطانية. وهذا التلميذ الجيد ودارس العصر الهيلليني الممتاز، سرعان مـــا يهتم بالعصر الوسيط، حيث يقوم بجمع التحف الأركيولوجية لذلـــك العصر. وفي أوائل القرن العشرين، تظـــهر الفضـــائل المفترضـــة لفروسية العصر الوسيط، بحسب قواعد إضفـــاء الطـــابع المثـــالي، بوصفها قيماً يجب التأسي بها من جانب المرشح لأن يصبـــح فـــي المستقبل شريفاً.

ولورانس أيضاً قارئ عظيم، مولع بالمؤلفات الخاصـــة بفـــن الحرب، وهو في الوقت نفسه رياضي خبير يدهش رفاقـــه بمـــآثره البدنية. وكما سوف يقول ذلك فيما بعد لليدل هارت، كاتب ســـيرته المفضل، فقد أدرك آنذاك بالفعل أنه سوف يجترح «مآثر عظيمـــة» وهو يتصرف بما يتماشى مع ذلك. ونحو العاشرة من عمره، يبـــدو أن توماس ادوارد يعرف أنه ابن غير شرعي، لكنه لن يحسب كـــل الثقل السيكولوجي لذلك إلاّ خلال يفاعته خاصة.

وفي عام ١٩٠٦، في الثامنة عشرة من عمره، يقوم بسلسلة من الرحلات بالدراجة عبر فرنسا، لكي يزور القصور المنيعة. وفي العام نفسه، يبدأ دراساته الجامعية في كلية يسوع بأكسفورد ويتخصص في التاريخ وفي الأركيولوجيا. وولعه بأغاني البطولات يقوده إلى توسيع ثقافته بحيث تشمل تاريخ العالم العربي، وذلك بفضل قراءة منتبهة لكاتبين سوف يكونان مهمين في تكوينه الفكري: من جهة، بلنت، الذي ترجم للتو مع زوجته القصائد قبل الإسلامية المسماة بـ«**المعلقات**» ومن جهة أخرى، شاعر ورحالة في جزيرة العرب، هو دوغتي. وكانت أطروحة بلنت هي أن الفروسية في الغرب قد استمدت أصلها، بالنسبة لقيمها الأساسية على الأقل، كالترحل والحب الغزلي، من نمط حياة العرب الأوائل. كما أن دوغتي قد شدد، هو أيضا، على تفوقهم في هذا المجال. وبعد الحرب، سوف يعقد لورانس علاقات شخصية مع هذين الكاتبين، اللذين سوف يثني عليهما دائما (خاصة دوغتي).

لورانس يختار كموضوع لأطروحته
«تأثير الحروب الصليبية على العمارة
العسكرية الأوروبية حتى أواخر
القرن الثاني عشر».

خلال صيف ١٩٠٩، يطوف بسوريا سيرا على قدميه لكي يجمع وثائقه. وهو يقيم عند السكان المحليين أو، عندما يستطيع

ذلك، يستفيد من ضيافـــة الإرســاليات البروتســتانتية الأمريكيـــة. وتصبح حياته عرضة للخطر عدة مرات في غارات لقطاع الطــرق لكنه يستفيد تماماً من هذه الحياة المغامرة والمثيرة للحماسة.

وبفضل عمله، يحصل على منحة لمواصلة بحوثه بينما، فـــي عام ١٩١٠، يحدث لقاؤه المهم مع هوجــارت. والحــال أن عــالم الآثار هذا، الشهير برواياته لرحلته إلى الشرق، كان قد عين للتـــو أميناً للمتحف الأشمولي بأكسفورد وكان قد حصل بــالأخص علـــى تصريح من السلطات العثمانية بالتنقيب في موقع مدينة كرشـــميش الحِثية، في جيرابلوس علـــى نـــهر الفــرات، لحســاب المتحــف البريطاني. وبما أن هوجارت لم يكن بوسعه التواجد فـــي الســاحة بصفة دائمة، فإنه يجند شباناً للعمل في موقع التنقيـــب. والحـــال أن لورانس الذي يتحين آنذاك فرصة للعودة إلى سوريا، يتصل بعـــالم الآثار ويعرض عليه خدماته. ويتم قبوله بشرط أن يواصل بشـــكل موازٍ بحوثه حول عمارة العصر الوسيط. وفي ديســـمبر/ كــانون الأول ١٩١٠، يرحل توماس ادوارد من جديد إلى ســـوريا حيــث سوف يبقى الجزء الأعظم من السنوات الأربـــع التاليـــة، باســتثناء بضع اقامات قصيرة في إنجلترا مع أسرته وفترة تدريـــب لإجـــادة أعمال التنقيب في مصر، تحت إشراف فليندرز بتري. وفـــي ذلــك العصر، كانت آسيا العربية جزءاً من الدولة العثمانية، بينما كــانت مصر في واقع الأمر محمية بريطانية.

وكقائد في المرتبة الثانية لموقع التنقيب مع زميل أكبر سناً بالكاد، هو ليونارد وولي، يبدي لورانس خصالاً واضحة كمنظم وكسائس للرجال. وهو يعشق الاختلاط بالسكان المحليين ولا يتردد في ارتداء الملابس العربية. ويرتبط بعلاقات صداقة مع العمال، خاصة مع شاب، هو داهوم، الذي سوف يرمز عنده فيما بعد إلى تعلقه بالعالم العربي. على أن الموقع يوجد على مقربة من أعمال بناء جسر على نهر الفرات لسكة حديد بغداد، محور تغلغل الألمان الاقتصادي في آسيا العثمانية. ويصطدم علماء الآثار اصطداماً عنيفاً بالمهندسين الذين ينافسونهم في تجنيد اليد العاملة ويغامرون خاصة بتدمير ساحات التنقيب. والنتائج قليلة الإثارة، لكنها مهمة من الناحية العلمية. ويلعب لورانس الشاب دوراً كبيراً في جرد وتصنيف المكتشفات، خاصة بالنسبة للسيراميك والنحت والنقوش التي يودعها بالمتحف الأشمولي.

في أعوام ١٩٠٩ ــ ١٩١٤ يصوغ رؤيته للعالم العربي

تتزامن الإقامة الأولى للورانس البالغ آنذاك واحداً وعشرين عاماً، في الشرق، مع نهاية ثورة «تركيا الفتاة» التي تحمل إلى السلطة جماعة كاملة من العسكريين والمدنيين العازمين على

تحويل الدولة العثمانية إلى دولة حديثة، تتبنى أحدث منجزات الحضارة الغربية. كما أنه يتعرف على موظف «جد متمدن ــ فرانكوفوني ــ من اتباع هربرت سبنسر ــ ماسوني ــ محمدي ــ من أنصار تركيا الفتاة»! وهو يفتتن حيال عمل المبشرين الأمريكيين الذين ينشرون تعليماً حديثاً وانجلوفونياً في كل سوريا والذين، وفقاً للبعض، يدين لهم المرء بالإصلاح الدستوري في الدولة العثمانية. وفي الجليل، يعجب أيما إعجاب بعمل الرواد الصهيونيين، الذين هم بسبيلهم إلى تحويل فلسطين.

ويبدو لورانس بالأحرى متحمساً حيال التقدمات الجارية. إلاّ أنه سرعان ما يغير رأيه، مدركاً لوجود هوية عربية حقيقية، وهو ما يقوده إلى اعتبار التأثير الغربي، خاصة الفرنسي، مفسداً. وفي عام ١٩١١، يكتب رسالة مغفلة من التوقيع وتوبيخية إلى **التايمز** يتهم فيها حكومة «تركيا الفتاة» بالرغبة في تدمير آثار الماضي، علامة التخلف، لكي تُحل محلها مدناً عمالية، رمز التنوير في الشرق.

وتعلمه للعربية تدريجي. والواقع أنه على مدار حياته لن يتكلم غير لهجة سورية فراتية، ممزوجة بصيغ بدوية. ولن يهتم أبدا بأن يكفل لنفسه معرفة نحوية حقيقية باللغة. وفي عام ١٩١٢، يجد أن المصريين كئيبين وقذرين بشكل فظيع، حيث لا يملكون بالمرة

روح ورقة «إناسه» الفراتيين. وفي عـــام ١٩١٣، يســـعد لنشـــوب الحرب البلقانية الأولى التي سوف يكون بوسعها انهاء «نظام حكـــم الأتراك الغبي بشكل ميئوس منه». وهو يعتقد أن اختفاء هذا النظـــام سوف يتيح فرصة للعرب الذين أثبتوا، في الماضي، أنهم قـــادرون على حكم صالح.

ومفتاح هذا الموقف موجود في كتابه الرئيسي، **أعمدة الحكمـــة السبعة**، الذي كتب بعد ذلك ببضع سنوات، وهو في هـــذا الكتـــاب يقارن علاقات الإنجليز والفرنسيين بالعرب، حيث يعتقـــد الإنجلـــيز والفرنسيون سواء بسواء أنهم الخلاصة البشرية. ويرى الإنجلـــيزي أن من الكفر أو انعدام الأدب أن يحاول العربي تقليده، لأن الرب لـــم يمنح العربي فرصة أن يكون إنجليزيا. والأفضل أن يبقى عربيـــا، لكي يكون مثالا صالحا لجنسه. وعلى الضـــد مـــن ذلـــك، يشـــجع الفرنسي الشعب الخاضع على تقليده، وحتى إذا لم يصل البتة إلـــى مستواه، فإن قيمته سوف تكون أعظم بحيث إنه سوف يقترب منـــه كثيرا: «نحن نرى في التقليد محاكاة تدعو إلى السخرية؛ بينما يـــرى فيه الفرنسيون ثناء وعرفانا». كذلك، في الشـــرق، لا يكـــف ت. أ. لورانس عن لوم مسيحيي الشرق، هؤلاء «الشوام» الفاسدين الذيـــن تبدو كوزموبوليتية بيروت المعلنة رمزا لهم. ودون أن يكون معاديـــا للفرنسيين، كما جرى اتهامه بذلك غالبـــا، فإنـــه يرفـــض بالكـــامل

«فرنسا الشام» هذه، عمل المبشرين الكاثوليك الذين ينشرون الثقافة الفرنسية المسيحية في المناطق الساحلية لسوريا.

ومستعيدا آراء عصره، يفسر تعارض العرب/ الأوروبيين بوصفه تعارضا بين ساميين وآريين. وبوصفه بريطانيا صالحا، فإنه لا يقدر غير الأجناس النقية، وبالنسبة له، فإن العربي الحقيقي هو عربي المناطق الداخلية. وكلما اقترب المرء من البداوة، كلما وجد هوية السامي. وهو يتقاسم الأفكار التي روجها في الماضي رينان والتي تذهب إلى أن السامية تجد تعريفها بالدرجة الأولى في غياب الظلال والشكوك، في فكر لا يستريح إلا فيما هو متطرف، وفي مخيلة حية لكنها غير خلاقة. وهو يستنتج: «إن أعظم صناعة لدى العرب هي صناعة المعتقدات الإيمانية»، والزهد، واحتقار العالم الدنيوي بما يستتبع العراء، والنسك والفقر، باختصار، الحالة المثالية. على أن لورانس يعتقد أن العرب مستعدون لكل شيء من أجل الدفاع عن فكرة توحدهم. وبالنسبة لعالم الآثار الشاب، فإن التعارض كامل مع الجنس التركي، البليد، عديم الخيال والميال إلى العسف والجور. ومنذ ذلك الحين، يبدو العرب له مستعدين لأن يصبحوا قوة فتية، تتجاوز الأتراك من حيث العدد كما من حيث الخصال الفكرية.

في مستهل عام ١٩١٤، يعمل ت. أ. لورانس لحساب جمعية صندوق الاستكشاف الفلسطيني

ويتعين عليه المشاركة في الرفع الأركيولوجي والخرائطي للمناطق الحدودية بين مصر وفلسطين. وسرعان ما يدرك لورانس أن هذا العمل، الذي يقوده الكابتن نيوكومب، هو قبل كل شيء عملية استخباراتية لحساب العسكريين البريطانيين. ويبدو له ذلك طبيعيا بل ويستمتع به بالأحرى.

والواقع، منذ عام ١٨٨٢، أن مصر، مع بقائها من الناحية الاسمية تحت السيادة العثمانية، هي بلد محتل من جانب البريطانيين، الذين يسيطرون على الإدارة من خلال مستشارين معينين في مناصب رئيسية في جهاز الدولة. أما فيما يتعلق بشبه جزيرة سيناء، فهي ذات وضعية ملتبسة، إلا أنه ما دامت هناك مصاعب اتصال في الولايات العربية العثمانية، فلا يمكن أن تكون هناك تهديدات حقيقية لأول قوة بحرية في العالم. على أن الموقف يتطور بسرعة بالغة.

إن أعمال بناء سكة حديد بغداد سوف تسمح بربط الشبكة الأناضولية بشبكة سوريا الشمالية. ثم إن الحكومة العثمانية تدشن

سكة حديد الحجاز لكي تربط المدينتين المقدستين في شبه الجزيـــرة العربية بسوريا. وفي عام ١٩٠٦، يحاول العثمانيون العمل على أن يمر هذا الخط بالعقبة، على مقربة من الحدود المصرية. وتتلو ذلـك مواجهة وحشية مع البريطانيين الذين ينزعجون لرؤيـــة الأتـــراك، حلفاء الألمان، حائزين لإمكانية أن يرسلوا على وجه السرعة جيشـاً مهماً على مقربة من مصر. وأزمة عام ١٩٠٦ تسمح للندن بفـوض حدود مصرية ـ فلسطينية، إلى أبعد مسافة ممكنة شمالاً، وبإبعـــاد سكة حديد الحجاز عن هذه الحدود. لكن الإنجليز يلتزمون الحـــذر: ففي الأعوام التالية، تصوغ الأركان العامة سياسة يجب اتباعها فـــي حالة نشوب حرب مع الدولة العثمانية: مهاجمة قواتها من الخلـــف في فلسطين عبر إنزال بين حيفا والاســـكندرونة وإثـــارة انتفاضـــة عربية تشل النشاطات العسكرية العثمانية.

وفي عام ١٩١١، بينما تتوتر العلاقات بين الأتراك والعـــرب، يصبح كتشنر معتمداً بريطانياً في مصر. وبطل الإمبراطورية هـــذا ذو رؤية أكثر هجومية، وهو يدع جواسيسه يكثرون من الصـــلات مع الشخصيات السياسية العربيـــة ويشـــجع نشـــاط اللبنـــانيين ـ السوريين المقيمين في مصر، والذين يتعاونون بشكل بالغ الفعاليـــة مع البريطانيين.

على أن مشاريع كتشنر تكبحها لندن، المحتاجة إلى أن يظل الأسطول الفرنسي حليفها في تنافس مع ألمانيا. وفي أواخر عام ١٩١٢، فإن فرنسا، ذات الأطماع في سوريا، تحصل على اعتراف من الحكومة البريطانية بصدارة نفوذها في تلك المنطقة (فيما عدا فلسطين).

ومع أن لورانس ورفاقه يحوزون تصاريح رسمية من أجل حملتهم الأركيولوجية، إلاّ أنهم يصطدمون بالعداوة المفهومة من جانب المسئولين العثمانيين في المنطقة. وفي العقبة، وهي نقطة استراتيجية على البحر الأحمر، يضطرون إلى اللجوء إلى القوة للقيام بعمليات الرفع. ويستفيد الكابتن نيوكومب من عالم الآثار الشاب ــ وهو ليس مغفّلاً ــ لجمع الحد الأقصى من المعلومات حول درجة إنجاز أعمال سكة حديد بغداد في منطقة الفرات.

وبعد هذه الحملة، يرجع لورانس إلى جيرابلوس، ثم يأخذ بضع عطلات في إنجلترا، مكرسة لوضع أعماله حول سيناء في شكلها النهائي. وعندئذ تنشب الحرب العالمية الأولى.

الفصل الثاني

عميل الاستخبارات

كجميع الشبان من جيله ومن وسطه الاجتماعي، يسعى ت. أ. لورانس على الفور إلى الانخراط في الجيش البريطاني، لكن كتشنر يطلب سرعة نشر التقرير الأركيولوجي الخاص بسيناء سعياً إلى ايهام الأتراك بأن الحملة لم يكن لها غير غاية علمية خالصة. على أن لورانس، مع دخول العثمانيين الحرب إلى جانب الألمان في أواخر أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٤، يتمكن أخيراً من الانخراط في الجيش.

يجريِ إرساله إلى مصر مكلَّفاً بالدرجة الأولى بتدقيق مجموعة خرائط لسيناء ولسوريا

منذ ما قبل بداية العمليات الحربية، كان البريطانيون قد بدأوا في تطبيق الخطط الموضوعة سلفاً. وفيما يتعلق بمشروع الثورة

العربية، فإنهم يدخلون في اتصال مع مندوبي الجمعيـــات القوميـــة المقيمين في مصر كما مع شـــخصيات مختلفـــة. ويتعيـــن العمـــل بسرعة، لأن العثمانيين يعلنون **الجهاد** ــ كابوس الاستعماريين منـــذ أواخر القرن التاسع عشر ــ ضد الدولتين العظميين اللتين تحتـــلان بلاداً مسلمة وهما إنجلترا وفرنسا. وفي كل مكان، يجــــري حشـــد المسئولين الدينيين، الذين يقررون علناً عدم جواز إعـــلان ســـلطان القسطنطينية **للجهاد**: والحجة التي يجري التذرع بها عموماً هي أنـــه بما أن السلطان ليس عربياً من قبيلة النبي، فليس بوسعه المطالبـــة بالخلافة وأن ادعاءه التصرف بوصفه خليفة هو من أكثر الأمـــور تعسفاً. وواقع أن أمير مكة، المسمى عموماً بالشريف (حفيد النبـــي والمنتمي إلى قبيلة الهاشميين)، حسيناً، يرفض إعلان **الجهاد**، هـــو واقع يرصده المسئولون الاستعماريون باهتمام، وذلك بقدر مـــا أن كتشنر والسكرتير الشرقي ستورز قد دخلا في اتصـــال مـــع ابنـــه الأكبر عبد الله، في مستهل عام ١٩١٤.

وكان عبد الله قد جس آنذاك نبض السلطات الإنجليزيـــة فيمـــا يتعلق بالحصول على دعم سياسي وعسكري فـــي حالـــة نشـــوب انتفاضة في الحجاز (المجال الجغرافي الذي يسيطر عليـــه والـــده) ضد العثمانيين. لكنه لم يحصـــل إلاّ علـــى رد مـــراوغ، بيـــد أن البريطانيين قد وجدوا في مقترحاتـــه إغـــراءً كبـــيراً. والحـــال أن كتشنر، وزير الحربية منـــذ أغســـطس/ آب ١٩١٤، مـــهتم جـــداً

بالمشروع العربي: فهو ينجح في تعيين شخصية جد ممسوحة، السير هنري مكماهون، خلفاً له في القاهرة، وذلك سعياً إلى مواصلة الإشراف على الشئون العربية، ويختار في لندن برلمانياً شاباً متخصصاً في الشرق، هو السير مارك سايكس، لتمثيله في اللجان الحكومية.

لورانس يحصل على مهمة أوسع،
جمع وتنظيم معلومات عن الجيش العثماني
والحركات السياسية العربية

في غضون بضعة شهور، يكتسب لورانس معرفة موسوعية حول الوضع العسكري والسياسي للإمبراطورية التركية. وبالرغم من موقفه المضاد للاتباعية إلى حد بعيد ـ زي عسكري مهمل، احترام قليل للانضباط العسكري ـ إلاّ أنه يصبح شخصية تحظى ببالغ التقدير في الوسط الصغير الذي يقوده ستورز في القاهرة، وهو عبارة عن مجموعة من العسكريين والجامعيين والدبلوماسيين والبرلمانيين، المتخصصين الهواة إلى هذه الدرجة أو تلك في الشئون العربية. ومستفيدا من شعبيته، يحاول لورانس، عبر تقاريره كخبير، التأثير على اتخاذ القرارات. وهكذا يحث على إنزال في الاسكندرونة يكون بمثابة «إشارة» لبدء انتفاضة عربية، لكن هذا

الاقتراح يلقى الرفض بسبب الأولوية المعطـــاة فـــي عـــام ١٩١٥ لعملية الدردنيل، التي كان عليها أن تقود إلى استسلام ســـريع مـــن جانب العثمانيين. وسوف تكون تلك العملية فشلا داميـــا للفرنســـيين وللإنجليز.

وشأنه في ذلك شأن غالبية أعضاء جماعـــة القـــاهرة، يـــرى لورانس أن العدو في سوريا هو فرنسا وليس تركيا. وهو واحد مـــن «الشرقيين» [*Easterners*] الذين يعتقدون أن بريطانيا العظمى يجب أن تكون المستفيد الرئيسي من انهيار الدولة العثمانية.

والحال أن الإنجليز، المضطريـــن إلـــى مراعـــاة المصـــالح الفرنسية، يستأنفون الاتصال، عبر السودان، مع الشريف حســـين. وبسبب انزعاجهم من الجامعة الإسلامية العثمانية، أصبح الحلفـــاء مستعدين للاعتراف لحسين بخلافة عربية يقتصر مجالـــها الزمنـــي [الدنيوي] على الحجاز، الأمر الذي من شأنه أن يكفل سكينة مسلمي الإمبراطوريتين الأوربيتين. لكن الشريف يطالب أيضـــا باســـتقلال البلدان العربية الممتدة من الأناضول إلى الحدود الفارســـية، ومـــن المحيط الهندي إلى البحر الأحمر وإلى البحر المتوســـط، لتشـــكيل خلافة مترامية الأطراف، بينما تحصل إنجلترا على وضعية سياسية واقتصادية وعسكرية متميزة في هذه الدولة الجديدة.

وبوصفه أخصائيا شهيرا بالفعل، يحرر لورانس في الأشهر الأولى لعام ١٩١٥ مذكرة حول سوريا. ومستعيدا الأفكار المشتركة بين معاصريه، يؤكد أنه من بين مدن سوريا الطبيعية الست الكبرى لابد من استبعاد مدينتين، القدس وبيروت، المعتبرتين جد كوزموبوليتيتين بحيث يصعب اعتبارهما عربيتين: فالقدس ليست غير نوع من فندق واسع لزائرين عابرين، وبيروت مدينة هجينة، بلغتها الفرنسية وميناثها اليوناني وجامعتها الأمريكية ورأيها العام الذي يمثله التجار المسيحيون، «وكلهم سمان».

وفي المقابل، تعتبر مدن الداخل الكبرى الأربع ـ دمشق، حمص، حماة وحلب ـ عربية وهي تعتبر نفسها عربية. ثم إن دمشق هي مفتاح سوريا ومركز المعارضة العربية. وبالرغم من وجود نوع من الوطنية المشتركة القائمة على استخدام لغة مشتركة وذكرى ماض مجيد، إلا أن السكان غير متجانسين إلى حد بعيد بحيث يصعب أن يؤسسوا بأنفسهم أمة حقيقية. ومن ثم فوحدها سلطة غير سورية الأصل، لكنها سنية وناطقة بالعربية، هي التي يمكنها العمل على إحياء مجد العباسيين والأيوبيين الغابر. وهذا ينطبق بوضوح على العائلة الهاشمية في مكة ... وفي تقارير أخرى، يبين لورانس أيضا أن موقف الشريف هو موقف جميع القوميين العرب السوريين وأن هؤلاء الأخيرين يعترفون بسلطته بفضل الاتصالات المعقودة مع الجمعيات السرية.

مذكرة من ليس بعد غير ليوتنانت
بسيط سوف تترتب عليها نتائج مقيمة

وهكذا يستخدم مكماهون صيغ لورانس في مفاوضاته مع حسين. وفي ٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٥، يكتب المعتمد البريطاني إلى الشريف أن «أجزاء سوريا الممتدة إلى الغرب من مدن دمشق وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال عنها أنها عربية بصورة خالصة ويجب استبعادها من الأراضي المطالب بها». وهو يبدي التحفظ العام الخاص بضرورة مراعاة مصالح فرنسا ولا يذكر فلسطين التي يعتبرها هي أيضا جد كوزموبوليتية، بسبب الأماكن المقدسة فيها. والواقع أن جماعة القاهرة، في عام ١٩١٥ هذا، تعتقد أن مستقبل هذه الأرض إنما يكمن في دمجها بمصر تحت الحماية البريطانية. أما فيما يتعلق بولايتي بلاد الرافدين، بغداد والبصرة، والواقعتين في منطقة نشاطات إدارة الهند البريطانية، فيشير مكماهون إلى ضرورة اتخاذ ترتيبات خاصة لازمة للدفاع عن حقوق بريطانيا المقررة منذ زمن بعيد في هذه المناطق.

ولا يجب التقليل من أهمية موقف ت. أ. لورانس في مفاوضات عام ١٩١٥. ومن المؤكد أنه يلعب ما يزال دورا ثانويا وحملته من أجل إنزال في الاسكندرونة تبدو معادية للفرنسيين

بشكل واضح بحيث يصعب أخذها في الحسبان، وذلك بقدر ما أن سوريا يجب أن تعود إلى فرنسا بموجب اتفاق عام ١٩١٢، وبعد الدردنيل، يدرس البريطانيون بالفعل عملية من هذا النوع، لكن تحفظات فرنسا جد قوية وذكريات الهزيمة في المضائق جد مبرحة. وفي الأعوام التالية، سوف تكون فرنسا هي المدافعة عن ملف مشروع كهذا، حيث يصل بها الأمر إلى حد تصور الاعتماد، إذا لزم ذلك، على قوات يابانية، لكن الإنجليز سوف يكونون آنذاك معارضين لذلك، بسبب مركز القوة الذي كسبوه في الساحة. وفي المقابل، في المسألة العربية، يجري أخذ أفكار لورانس في الاعتبار؛ فهو يعرف اللغة والبلد ويستوعب الموضوع تماما بسبب عمله الدائم في تنظيم المعلومات التي تتدفق على القاهرة. على أن مفهومه جد البريطاني لـ«العروبة» يظل غير مفهوم بالنسبة لمحاورية العرب، الأمر الذي يعطي لمراسلات حسين ــ مكماهون، بالنسبة للهاشميين، معنى جد مختلف. فبالنسبة للأشراف، ينحدر جميع عرب آسيا، أكانوا مسيحيين أم مسلمين، من جد مشترك ولا يمكن أن يكون هناك حديث عن اختلاف بين «العرب» و«المعربين». ويرد حسين على مكماهون بأنه لا يفهم مغزى خط دمشق ــ حمص ــ حماة ــ حلب وأنه فيما يتعلق بالولايات العراقية، فإنه مستعد فقط للسماح بوجود مؤقت للبريطانيين الذين

سوف يكون عليهم دفع تعويضات مالية عن استخدامهم للأرض العربية.

التفسير البريطاني لمراسلات حسين ـ مكماهون سوف يكون أساسا لاتفاق سايكس ـ بيكو

إدراكا من مارك سايكس لأهمية استخدام الفرنسيين كحاجز بين الإمبراطوريتين الروسية والبريطانية، فإنه يعرض عليهم المناطق الأناضولية إلى جانب شمالي العالم العربي، بما في ذلك ولاية الموصل. عندئذ ستحوز فرنسا منطقة إدارة مباشرة في غربي خط دمشق ـ حلب الشهير، ومن ثم تشمل لبنان بينما سيفعل البريطانيون الشيء نفسه في بلاد الرافدين؛ أما فلسطين فسوف يجري تدويلها (في تفكير سايكس، سوف يشارك الأشراف في إدارة هذه المنطقة بوصفهم ممثلين للمسلمين)؛ أما المناطق الداخلية فسوف تكون مخصصة لدولة أو لاتحاد دول عربية تحت النفوذ الفرنسي في الشمال وتحت النفوذ الإنجليزي في الجنوب.

وينطلق سايكس من الفرض المشترك لدى جميع الخبيرين بالمنطقة في ذلك العصر: إن الدولة العربية القادمة لن يكون بوسعها التطور إلا بفضل وصاية المستشارين الأوروبيين، كما هي

الحال بالفعل في مصر. وحرصا منه على الإبقـــاء علـــى الوفـــاق الودي، فإنه يتصور تعاونا وثيقا بين الإمبراطوريتين الاسـتعماريتين الكبريين، عرابتي القوميات الآخذة في التشـــكل. ومـــن ثـــم يتـــم التفاوض على الاتفاق مع الممثل الفرنسي، جورج بيكو، بين ينـــاير/ كانون الثاني وأبريل/ نيسان ١٩١٦. وبعد ذلـــك ببعـــض الوقـــت، يصدق الروس على هذا الاقتسام الذي يمنحهم جـــزءا كبـــيرا مـــن الأناضول. والحال أن سايكس، الفخور بنجاحه الديبلوماسي، يحـــاول عندئذ تكوين «مكتب عربي» في لندن، يكون تحت قيادتـــــه. لكـــن جماعة القاهرة تعارض ذلك وتتوصل إلى تكوين «مكتب عربـــــي» يقتصر على وظائف استخباراتية ويكون مقره في القاهرة. ويتولـــى هوجارت، أستاذ لورانس السابق، قيادته الفعليـــة، تحـــت إشـــراف الكولونيل كلايتون.

لكن حكومة الهند البريطانية مناوئة
للسياسة التي تنتهجها جماعة القاهرة

بما أن المحميات البريطانية في الخليج وعـــدن تقـــع ضمـــن مجالهم التقليدي، لا يسعى هؤلاء المتخصصون في ما بـــدأ يســـمى بالشرق الأوسط إلاَّ إلى تخليد نموذج الإدارة المباشـــرة الممـــارس انطلاقاً من الهند. وهم يعتبرون الجماعة التي كوَّنها كتشنر لمامـــــة

من الهواة الخطرين الذين يجازفون بتهديد عيـن أسـس السـيطرة البريطانية في المنطقة. ثم إنهم يطرحون الحجة المتناقضـة التـي تذهب إلى أن الأشراف لا يمثلون أية قوة فعلية وأن هنـاك خطـراً جسيماً في إنشاء دولة عربية قوية مستقلة على طريق الـهند. كمـا أنهم يحصلون من لندن على «إشراط» تطبيق محتـوى مراسـلات حسين ـ مكماهون بفعلٍ حقيقيٍ من جانب القوميين وهـو فعـل يجري تصوره خاصة، في تلك اللحظة المحددة، بوصفه انتفاضـة من جانب العناصر العربية في الجيش العثماني تفتح بذلك الطريـق أمام جيوش الحلفاء. لكن الوالي التركي، جمال باشا، الذي يقبـض على الولايات السورية بيد من حديد، يرتاب فـي الأمـر: فيـأمر بسحب القوات العربية من مسرح عملياته ثم يدشن قمعا لا يرحـم ضد المنظمات القومية. وبالعشـرات، يجري إعدام المسئولين عـن الحركة علنا أو تحديد إقامتهم تحت المراقبـة في الأناضول خـلال عامي ١٩١٥ ــ ١٩١٦.

ومن جهته، وسعيا إلى تبديد حجج حكومة الهند، يكثر لورانس من التقارير التي تبين أن الشريف حسين هو بـالفعل قـائد يتمتـع بصلات واسعة في المنطقة ولكي يبيـن، مـن جهـة أخـرى، أن العرب، الذين يعدون بحكم طبيعتهم غير مستقرين ومقسـمين، لـو أحسن البريطانيون استخدامهم «سوف يبقون في حالـة موزاييـك

سياسي، نسيجاً من الإمارات الصغيرة المتنافسة، العاجزة عن التلاحم وإن كانت مستعدة دائماً للاتحاد ضد قوة خارجية». وباختصار، فهذا هو أفضل ما يمكن نشدانه ليحل على طريق الهند محل دولة عثمانية متحالفة مع ألمانيا...

وعلاوة على ذلك، يعالج لورانس بشكل خاص الملفات المتعلقة بالجيش العثماني في القوقاز والذي يواجه الزحف الروسي، وهو جيش مؤلف إلى حد بعيد من القوات العربية المسحوبة من سوريا. ويوصل لورانس إلى الروس قائمة بأسماء ضباط هذه الوحدات المنتمين إلى المنظمات القومية. ويبدو، لأن المسألة ما تزال إلى الآن تعتبر من الأسرار العسكرية، أنه بفضل بلاغات لورانس، تمكن الروس من الاتصال بهؤلاء الساخطين، الأمر الذي يحتمل أن يكون قد سهل بشكل ملحوظ سقوط موقع أرضروم المنيع في فبراير/ شباط ١٩١٦.

هذا الانتصار الروسي يُبرز الضابط الشاب، الذي يجري إرساله إلى بلاد الرافدين لتحقيق عمل مماثل

منذ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٤، كان جيش الهند قد استولى على البصرة سعياً إلى ضمان السيطرة البريطانية على

الخليج وعلى حقول بترول فارس، وهي الحقول الوحيدة المستغلة آنذاك في تلك المنطقة. ويتميز عام ١٩١٥ بسلسلة من الانتصارات للإنجليز ـ الهنود الذين لا يبعدون عن بغداد، في نوفمبر/ تشرين الثاني، إلا بمسافة عشرين ميلا. لكن العثمانيين ينجحون في صدهم، ثم في تطويق القوات المتقدمة التي يقودها الجنرال تاونشند في مدينة كوت. وتبدأ كارثة جديدة، مماثلة لكارثة الدردنيل. ففي مارس/ آذار ١٩١٦، تفشل محاولات إدخال تعزيزات، مما يؤدي إلى خسائر ملحوظة في صفوف القوات البريطانية.

ويستفيد لورانس وجماعة القاهرة من الموقف لكي يقترحوا تفجير انتفاضة عربية في بلاد الرافدين، يكون من شأنها السماح بتحرير الجيش المحاصر. لكن حكومة الهند ترفض تقديم التنازلات السياسية الضرورية، والتي يمكن أن تهدد سياستها الرامية إلى جعل بلاد الرافدين مستعمرة نموذجية، تتبع الهند. بل يقال إنه قد جرى التفكير في توطين عدة مئات من الآلاف من الهنود هناك لاستثمار وادي الرافدين وللتمتع بجماعة سكانية أكثر ولاء من العرب.

ويجري التخلي عن مشروع الثورة ويكلف لورانس بمهمة محدودة أكثر: الاستفادة من صلاته مع القوميين ـ المتصلين بالأتراك ـ لاقتراح استسلام للجيش الإنجليزي الذي سوف يعاد

بشكل مشرف إلى الهند مع التعهد بكلمة شرف بعدم المشاركة في الحرب الدائرة. وفي مقابل ذلك، يجري اقتراح دفع مبلغ ملحوظ من المال للمسئولين العثمانيين عن بلاد الرافدين، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى إذكاء الخلافات في الحكومة التركية بين أنصار مواصلة الحرب وأولئك الذين يتمنون صلحا منفردا مع الحلفاء.

ويصل لورانس إلى البصرة في ٥ أبريل/ نيسان ١٩١٦. وسرعان ما يدرك أن قيمة مهمته مشكوك فيها إلى حد بعيد. وتفشل محاولات إرشاء المسئولين العثمانيين، ويشهد، عاجزا، المفاوضات المؤدية إلى استسلام تاونشند والقوات الإنجليزية ـ الهندية. على أنه يستفيد من إقامته في بلاد الرافدين لكي ينكب على فحص كامل للانخراط الإنجليزي في المنطقة. وتقريره المؤرخ في مايو/ أيار ١٩١٦ دامغ لسياسة حكومة الهند: إن عملاء المخابرات لا يتكلمون العربية وهم مضطرون إلى الاعتماد على ترجمانات؛ ورسم خرائط المنطقة لم يتم بشكل جاد؛ وهناك تطبيق آلي للإجراءات الإدارية الهندية على الحقائق الواقعية المحلية؛ والسكان هم بالأحرى معادون للأتراك، لكن الإنجليز ـ الهنود عاجزون عن الاستفادة من هذا الموقف المؤاتي؛ ويتصرفون كـ«أبي هولات» حيث لا يقولون البتة لماذا هم هناك ولا يشرحون ما ينوون عمله. ومن الضروري إصدار بيان سياسي لحسم تردد عرب بلاد الرافدين، وغالبيتهم من

الشيعة المعادين للعثمانيين. وبوسع سياسة ذكية من جانب البريطانيين أن تكفل دعم الشيعة لهم وأن تسمح لهم بعلاقات طيبة مع رجال الدين في مدن العراق المقدسة، مماثلة للعلاقات الموجودة مع مكة، بما يمنح بريطانيا العظمى نفوذا لا ينازع على مجمل المسلمين.

عندما يرجع لورانس إلى القاهرة، يعرف محتوى اتفاق سايكس ـ بيكو ويعلم بنشوب الثورة العربية السابق للأوان

الواقع أن الشريف حسين، المنزعج من تحركات القوات العثمانية في الحجاز، والتي جعلته يخشى من عملية وقائية لإزالته، قد دشن الانتفاضة في ٥ يونيو/ حزيران ١٩١٦. وفي الأول من يوليو/ تموز، يستطيع لورانس إذا أن يكتب إلى والديه: «لقد تطلب ذلك عاما ونصفا لإعداده، لكنه يسير على ما يرام الآن. وإنه لأمر طيب جدا أن أكون قد ساهمت إلى حد ما في صوغ أمة جديدة وإنني لأكره الأتراك إلى أبعد حد بحيث إن رؤية شعبهم ينقلب عليهم يعد أمرا جد مريح. وأنا آمل في أن تكتسب الحركة أهمية، كما تعد بذلك. [...] إن الثورة، في حال نجاحها، سوف تكون أعظم شيء في الشرق الأدنى منذ عام ١٥٠٠».

على أن لورانس سوف يتعين عليه، في الأســابيع التاليــة، أن يبقى في القاهرة، مستأنفا عملــه المكتبــي، بينمــا يشــن الجيــش البريطاني الهجوم في سيناء لكي يخلص مصر من التهديد العثماني. لكن لندن ترى أن جيش مصر يجب أن يبقى على المواقع التي تــم الاستيلاء عليها مؤخرا وأن يكتفي بتقديم دعم لوجستي إلى الثــورة العربية. ويشعر الكابتن الشاب بالإحباط المريع لكونه لا يشارك فــي المعارك، في حين أن اثنين من اخوته قد ماتا في أوروبا في عــام ١٩١٥. وهو يشعر بالذنب.

الفصل الثالث

«انتصار» ؟

لورانس، الذي كان حتى ذلك الحين
رجلا يتمتع بالنفوذ، يستعد لدخـــول
التاريخ برسالة شخصية: خلــق أمـــة
عربية مخلصة للإمبراطوريــة البريطانيــة

يعرف، في القاهرة، بعد انقضاء الحماس الأول، أن قـــوات الأشراف، المكونة من البدو وحدهم والتي يقودها أبناء حسين الكبار الثلاثة، علي وعبد الله وفيصل، قد منيت بسلسلة كاملة من الـهزائم. ومن المؤكد أنهم يسيطرون على ســاحل الحجــار ومكــة، لكــن العثمانيين يواصلون الاحتفاظ بالمدينة المنورة ويشـــنون هجمــات مضادة. والبدو هم هدف مدفعيـــة العـدو. ويتســاءل الفرنســيون والإنجليز: هل يجب عليهم أن يرسلوا إلـــى المســلمين فـــي هـذه

الأرض المقدسة قوات دعم أوروبية، الأمر الذي يـــهدد بتخريــب سمعة الأشراف السياسية ؟

ويستفيد لورانس من هذا الموقف لكي يتوصل إلى إرساله إلــى الحجاز. وهو يصل إلى جدة في ١٦ أكتوبر/ تشـرين الأول ١٩١٦. لكن استقصائه شخصي أكثر: فهو يحاول أن يعرف من هو الزعيـم الذي يمكن أن يختاره للثورة التي يريد أن يكون صانعها. والحـــال أن حسينا كبير جدا بحيث يصعب عليه القتال، أما علي فهو يفتقــر إلى السلطة وعبد الله ديبلوماسي بأكثر مما هو محارب، أمـــا فيمــا يتعلق بزيد فهو صغير جدا. والابن الثالث، فيصل، يغريـــه علــى الفور: إنه في الحادية والثلاثين من العمر (أكبر من لورانس بثـلاث سنوات) وهو يشبه من الناحية الجسمانية ريتشـــارد قلــب الأســد ويحوز جاذبية زعيم عظيم. ولورانس يعلن أنـــه يشــاطر حلمــا واحدا. وردا على فيصل الذي يسأله عن رأيه فـــي مرابطتــه فــي وادي صفرا، يقول: «لا بأس، لكنه [الوادي] بعيد عن دمشق ... ».

وهو لا يجد وحسب الرجل الذي يبحث عنه، بل إنـــه يــدرك على الفور الاستراتيجية التي يجب اتباعها: فبما أن البدو ليسوا غير مجموعة من الرماة، غير القادرين علـــى الصمــود فــي معركــة مواجهة مخططة، فإن مجالـــهم المفضــل ســوف يكــون حــرب العصابات، المتناسبة تماما مع هذه الروح الفردية التي تجعلهم غــير

متماشين مع أي انضباط. وبفضل درايتهم بالساحة، يمكنهم شل تحركات الأتراك ووضع نهاية للتهديد الذي ينيخ على الثورة العربية.

ويصل تقرير لورانس في الوقت المناسب؛ وأفكاره تعزز موقف أولئك المناوئين لإرسال قوات مسيحية إلى الحجاز. وعندئذ يحاول التوصل إلى تعيينه بصفة دائمة في المنطقة، لكنه كان قد وصل إلى أن يجعل نفسه ضروريا جدا في القاهرة بحيث يصعب على رؤسائه أن يقبلوا رحيله. وفي النهاية، في ديسمبر/ كانون الأول، يتوصل إلى الموافقة على إرساله إلى فيصل بصورة مؤقتة.

وهناك يجد موقفا عسكريا آخذا في التفاقم. فالاخفاقات تؤدي إلى تفسخ الأشراف وتهديد العثمانيين لموانئ الساحل يرغم الفرنسيين والإنجليز على أن يدرسوا من جديد إنزالا في المنطقة. عندئذ يتجه فيصل إلى الشمال، وفي يناير/ كانون الثاني ١٩١٧، يستولي على موقع وجه، مرغما الأتراك على وقف زحفهم على مكة. وتنجح المناورة ويعجز العثمانيون عن شن هجوم، بسبب إضرارهم إلى نشر قواتهم لحماية السكة الحديد. ويطالب فيصل ملحا ببقاء لورانس معه بشكل نهائي، وهو ما تضطر السلطات البريطانية إلى قبوله.

منذ أن قرر لورانس أن يجعل من فيصل بطل الثورة العربية، فإنه يطرح على نفسه مسألة العلاقات مع فرنسا

تناحره فوري مع الليوتنانت ـ كولونيل بريمون، الذي يقود البعثة الفرنسية في الحجاز. فهذا الأخير، القادم من جيش أفريقيا (الجزائر والمغرب) له فلسفة متعارضة تماماً مع فلسفة الكابتن الشاب. فهو يتصور بالنسبة للمستقبل اندماجاً للعناصر العربية والفرنسية، تومئ إليه أخوة السلاح خلال الحرب. وبشكل مباشر، يعادي بريمون كل تحرك للأشراف في اتجاه سوريا وكان واحداً من الداعين الأكثر حماسة إلى إنزال أوروبي في الحجاز. والحال أن البريطانيين، المنزعجين مما يتهمونه بأنه دسائس بريمون، سوف يتوصلون خلال عام ١٩١٧ إلى استدعائه إلى المتروبول. وفي المقابل، فإن كوادر الوحدة الفرنسية الصغيرة، المؤلفة خاصة من ضباط مسلمين، والذين حصل بعضهم على الجنسية الفرنسية، سوف يبقون إلى نهاية العمليات، حيث سيلعبون دوراً غير تافه في معارك عام ١٩١٨.

ويرى لورانس أنه، لأجل النجاح، لابد للثورة العربية بصورة مطلقة أن تكون ماثلة في المدن الأربع الكبرى الشهيرة لسوريا الداخلية سعياً إلى التواجد في وضع مؤات عند التسوية النهائية.

وسياسته كلها تميل إلى أن يكون العرب أول من يدخل دمشق. ويبدو أنه في أوائل عام ١٩١٧ قد أبلغ فيصل بذلك تلميحاً، الأمر الذي يفسر التحرك الذي قام به نحو الشمال منذ أواخر ١٩١٦. وإذا ما صدقنا أعمدة الحكمة السبعة، ففي تلك اللحظة بالتحديد بلور لورانس استراتيجيته النهائية أثناء مرضه واستراحته في معسكر عبد الله. ومستعيدا ذكريات قراءاته حول فن الحرب، يحدد خصائص حرب العصابات: بما أن حرب الحجاز قد تم كسبها بالفعل، مادام الأشراف يسيطرون على الساحة وبما أن العثمانيين معزولون في مواقعهم الثابتة، فإنه لا فائدة من السعي إلى معركة جبهة ضد الأتراك؛ ويجب، على الضد من ذلك، استنزاف العدو بالهجوم بصورة منهجية على خطوط إمداده، كخط السكة الحديد. وكل ذلك يفترض منظومة استخبارات ناجزة وحركية كلية للمقاتلين ودعما أكيدا من جانب السكان المحليين.

ولورانس ليس مخترع حرب العصابات في القرن العشرين ـ فهي قد مورست بالفعل من جانب البوير ضد الإنجليز في جنوبي أفريقيا ومن جانب العثمانيين في ليبيا ضد الإيطاليين في عام ١٩١٢ ـ، لكنه أول منظر لها. وما يصرح به في أعوام ١٩١٧ ـ ١٩٢٠ هو المبادئ الرئيسية للحرب الثورية، تطويق المدن من جانب الأرياف وكون المقاتلين «سمكا في الماء» بين السكان.

وهنا، يجب ترك الأتراك سادة للمدينة المنورة، التي لا يستطيعون الخروج منها، بما يؤدي إلى شل جنود النخبة وتحقيق استنزاف في تقديم العون لهم. وهكذا، فخلال عام ١٩١٧، عندما فكر العثمانيون في الانسحاب من المدينة المقدسة لتعزيز قواتهم التي تواجه الجيش البريطاني في فلسطين، آثر العرب منع هذا التحرك بدلاً من الاستيلاء على المدينة، الذي كان من شأنه أن يعود عليهم بكسب سياسي غير تافه.

مادامت الثورة تسيطر، فعلياً، على الحجاز وأن هدفها الحقيقي هو سوريا، فإن المرحلة التالية هي العقبة

منذ بداية الحرب، تتكشف أهمية هذا الموقع وقد قصفته القوات البحرية الإنجليزية والفرنسية في عدة مناسبات. وعلى مدار عام ١٩١٦، شدد بريمون على ضرورة إنزال للاستيلاء على هذا الموقع الحيوي ــ خاصة ما أن يسيطر الإنجليز على سيناء ــ بما يكفل الربط بين الحرب في الحجاز وحملة فلسطين.

ومتحدثا باسم فيصل، يدعو لورانس لدى رؤسائه إلى هجوم عربي على العقبة، لا يمكن أن يفشل من داخل الأراضي، حيث إن

الميناء لا يجد دفاعاً عنه إلاّ من جهة البحر. لكن الأركـان العامـة في القاهرة، في أبريل/ نيسان ١٩١٧، معاديـة لمشـروع كـهذا. ويتزايد انزعاج لورانس عندما يعرف أن سايكس وبيكـو قـد زارا جدة للنقاش مع الشريف حسين.

والحال أن المفاوضين، بعيداً عن أن يقدما تفـاصيل ملموسـة للاتفاق الفرنسي ـ الإنجليزي، يعقّدان الموقف بالحديث عن منـح فرنسا في سوريا مكانة مساوية لمكانة إنجلترا في بـلاد الرافديـن. وبالنسبة لحسين، الذي لـم يوافـق إلاّ علـى وجـود مؤقـت للبريطانيين في بغداد وفي البصرة، فإن ذلك يعني أن فرنسا ليسـت ذات أطماع حقيقية في سوريا، أما بالنسبة لسايكس، فإن هذا الكـلام الجديد لابد له في آن واحد مـن أن يشـكل عقبـة أمـام أطمـاع الفرنسيين وأطماع حكومة الهند فـي الأراضـي العربيـة. وهـذا التعاقب للالتباسات ليس من شأنه غير تعقيـد موقـف ديبلوماسـي ملتبس بالفعل (في الوقت نفسه يفكر الحلفاء في إمكانية عقد صلـح منفرد مـع العثمانيين). ومن ثم فمن الملح العمل في سوريا، ومـن ثم الاستيلاء على العقبة، همزة الوصل مع الجيش البريطاني الـذي يتقدم في سيناء.

وفي ٩ مايو/ آيار، مع الشريف نـاصر، أفضـل مسـاعدي فيصل، وعدوه أبو طي، أشهر محارب في شمال شبه الجزيرة، إلـى

جانب خمسة وأربعين رفيقاً، يشن لورانس الحملة في اتجاه مناطق الشمال. وهو يهاجم في البداية خط السكة الحديد، ثم ينتقل من مخيم إلى مخيم، ومن قبيلة إلى أخرى، سعياً إلى تجنيد رجال. وفي الشطر الأول من يونيو/ حزيران، يترك لورانس معظم القوات وفي غارة شجاعة بشكل غير عادي، يصل إلى مشارف دمشق وسهل البقاع لكي يدرس وضع هذه المنطقة الواقعة في قلب الانتشار التركي. كما يحاول ثني السوريين عن الانخراط في ثورة سابقة للأوان حتى لا يتعرضوا لأعمال انتقامية رهيبة من جانب العثمانيين.

وفي ١٨ يونيو/ حزيران، يرجع إلى وحدة ناصر. وبعد سلسلة من هجمات حرف الأنظار على خط السكة الحديد، يحشد ناصر وعدوه ولورانس الرجال، في ٢ يوليو/ تموز، وفي هجمة قوية عبر الصحراء، يجتاحون المواقع العثمانية على طريق العقبة، ثم يستولون على المدينة دون صعوبة كبيرة. وهذا المشروع الجنوني يقلب الموقف: إن القبائل البدوية في شرقي الأردن تنحاز إلى الأشراف.

وخلال مجمل الحملة، أثبت لورانس صموداً جسدياً غير عادي: لقد واجه الطرق الطويلة في وسطٍ معادٍ بقليل من الماء وبقليل من الغذاء. وأصبحت الثعابين والعقارب منذ ذلك الحين

جزءا من بيئته اليومية. وكل خطوة هي انتصار على الألم، والمرض (الحمى، الدوسنتاريا) يصيبه بصورة منتظمة. لقد كان يريد أن يبدو أكثر تحملا من رجال الصحراء، فدخل بذلك معهم في نوع من السباق حيث يحاول كل واحد أن يتفوق على ذاته.

لورانس يسارع بالذهاب إلى القاهرة مجتازا سيناء ويجد هناك وضعا تغير كثيرا منذ إقامته الأخيرة

منذ شهر مارس/ آذار، ثم في أبريل/ نيسان ١٩١٧، يحاول البريطانيون التغلغل في فلسطين عبر محاربة العثمانيين، لكنهم يصطدمون بمقاومة جبارة تكلفهم عشرة آلاف قتيل وجريح ومفقود خلال معركتي غزة الأولى والثانية. ومن المؤكد، بعد الدردنيل وكوت، وبالرغم من الاستيلاء على بغداد في ١١ مارس/ آذار، أن الأتراك يظلون عدوا رهيب الجانب. وتهدد الحرب في الشرق بأن تنحط إلى حرب خنادق كما في أوروبا، لاسيما وأن الثورة الروسية تؤدي إلى انسحاب القوات العثمانية من القوقاز، فتجيء لتعزيز جبهتي فلسطين وبلاد الرافدين.

إلا أنه منذ أواخر عام ١٩١٦، تنتصر جماعة الشرقيين [Easterners] في لندن مع تشكيل حكومة لويد جورج، التي تقرر آنذاك إرسال جنرال إلى الشرق، تميز في أوروبا، هو اللنبي، سعيا إلى استعادة زمام الأمور. والحال أن لويد جورج المحتاج بشكل لازم إلى نجاح في الشرق بعد الانتكاسات الأوروبية، إنما يطلب منه «القدس هدية للأمة البريطانية في عيد الميلاد». ويتولى اللنبي قيادته في القاهرة في ٢٨ يونيو/ حزيران. وسرعان ما يجد نفسه منجذبا إلى ذلك الذي، ليس فقط يهديه العقبة، وإنما يقترح عليه في التو والحال خطة كاملة للعمليات في فلسطين، حيث يمكن للأشراف أن يشكلوا الجناح الأيسر للجيش البريطاني، بما يؤدي إلى شل جانب كبير من قوات العدو وشل مواصلاته.

وهكذا فإن لورانس، الذي رقي إلى رتبة ميجور، يحتل الآن مكانة فريدة. فمن الجانب البريطاني، مع بقائه من الناحية الرسمية مجرد ضابط اتصال، يعد في الواقع المسئول الرئيسي عن السياسة تجاه الحجازيين الذين يحسن جيدا توجيههم، وهو الأمر الذي ليس من شأنه غير تعزيز مكانته لدى العرب، الذين لا يجهلون أن جزءا من المساعدة البريطانية يجئ عن طريقه.

ومنذ الاستيلاء على العقبة، تتزايد المساعدات البريطانية زيادة ملحوظة. ومن المؤكد أن الثورة العربية لم تؤد إلى الانتفاضة العسكرية التي كان الحلفاء يتوقعونها، لكن فصم عرى الوحدة الإسلامية هو رصيد رئيسي. واستئناف الحج إلى مكة من جانب مسلمي الإمبراطوريتين الاستعماريتين الكبريين هو البرهان الدامغ على فشل سياسة الجامعة الإسلامية التي تنتهجها ألمانيا. والأشراف، بدلا من أن يضطروا الحلفاء إلى تحويل جزء من قواتهم إلى جبهة الحجاز، إنما يقدمون مساعدة فعلية لمعركة فلسطين. ويجري إرسال أسلحة وأموال وخبراء بريطانيين إلى جيش فيصل، الذي جعل من العقبة قاعدته الرئيسية. وعندئذ يحرر لورانس نصا من ثمان وعشرين مادة يصبح مرجع البريطانيين العاملين في الجيش العربي:

توجيه عرب الحجاز فن وليس علما. لا تصدر أبدا أوامر بل بالأحرى نصائح للقادة الذين يجب كسب ثقتهم. كلما كان التدخل أقل سفورا كلما كان النفوذ أعظم. في كل مكان، يجب دعم الأشراف، الذين يشكلون الأرستقراطية الوحيدة فوق القبلية القادرة على توحيد جميع البدو. من الأفضل عدم ارتداء الملابس العربية، مع ما ينطوي عليه ذلك من خطر الظهور بمظهر ممثل في مسرح

أجنبي، يلعب دورا نهارا وليلا على مدار شهور، دون راحة ومن أجل رهان مشكوك فيه. وإذا ما ارتدى المرء ثوبا عربيا، فمن الأفضل عندئذ أن يكون ثوب شريف، لكن متطلبات ذلك سوف تكون جد فادحة: «أترك على الشاطئ أصدقاءك وعاداتك الإنجليزية وتقبل العادات العربية بالكامل. ويوسعنا، عندما نتحرك بهذا الشكل في مساواة معهم، نحن الأوروبيين، أن نبز العرب في لعبتهم الخاصة، لأن دوافعنا إلى الفعل أقوى من دوافعهم».

وبوجه عام، «هذا هو سر، كل سر استخدام العرب بشكل جيد: لا تكف عن دراستهم. كن محترسا دائما: راقب نفسك وراقب رفاقك، طوال الوقت، أنصت لكل ما يجري، حاول أن تكتشف ما يحدث على السطح، أسبر شخصياتهم، اكتشف ميولهم ونقاط ضعفهم واحتفظ لنفسك بكل ما تكتشفه. توحد مع الأوساط العربية؛ لا تهتم ولا تفكر إلا في العمل الجاري، بحيث لا يتشبع دماغك إلا بشيء واحد. والحال أن نجاحك سوف يكون متناسبا مع كمية الجهد الفكري الذي تكرسه لذلك».

وهذه الفقرة التي تعد مرجعا كاملا في الاثنولوجيا السياسية هي اعتراف باطني. إن لورانس الذي ارتدى ثياب الأشراف

بناء على طلب من فيصل منذ إقامته الثانيـــة فـــي الحجـاز، هــو بسبيلــه إلى أن يكشف هنـــاك عـــن الأمـــارات الأولـــى لدرامـــاه الشخصية.

حياته السابقة كلها بدا أنهـا قـد أعدتـه للمغامرة الكبرى، لكن واقع حياة الصحراء والحرب يتكشف عن شيء آخر

كلما توحد مع دوره، كلما تكشـــفت لـــه طبيعتـــه البريطانيـــة الفيكتورية العميقة وكلما تمرد على الكائن الذي هو بسبيله إلــــى أن يكونه. وفي **أعمدة الحكمة السبعة** سوف يكون الاعتراف رهيبـــا: «الإنسان الذي يقبل امتلاك الغرباء له يحيا أسوأ حيـــاة، ألا وهـــي حياة العبد، لأنه قد باع روحه لإنسان فظ». وهو يلحظ في محصلـــة المشروع «شعورا بالوحدة الكثيفة مصحوبا باحتقار ليس للآخريـــن وإنما لكل ما يصنعونه. ومستنزفا من جراء مجهود بدني وانعـــزال مديدين بدرجة متساوية، عرف إنسان هذا الانفصال الفائق. وبينمـــا تقدم جسده كآلة، تخلت عنه روحه العاقلة لكي تبث فيه نظرة نـــاقدة بالتساؤل عن غاية ومبرر مثل هذا الزحام. بل إن هذه الشـــخصيات أحيانا ما تنخرط في محادثة في الفراغ: عندئذ يكون الجنون قريبـــا،

وأعتقد أنه قريب من كل إنسان يستطيع أن يرى الكون في آن واحد عبر حجابي ملبسين وتربيتين ووسطين».

وهذا الضغط الملحوظ يتعزز مع اكتشاف العنف. ففي أول مرة تعين عليه قتل رجل بدم بارد كجلاد، سعياً إلى تجنب نشوب مسلسل ثأر قبلي، اضطراب تماماً. وإذا كانت تستحوذ عليه حمية المعارك، فإن تبددات الأوهام قاسية. وهو يعترف لأصدقائه: إن قتل الأتراك فظيع. أما الإجهاز على جرحاه هو، وهم أعزاء، حتى لا يسقطوا في أيدي الأعداء فهو أمر لا يحتمل.

ولورانس ليس جندياً محترفاً، حتى وإن كان يبدو أكثر روعة وأكثر حذقاً من آخرين. وهو يدرك أن قدرته على التحمل المعنوي أكثر محدودية من تحمله البدني. وبما أنه قد قرر أن يجعل من الثورة هدفه، فإنه يعتبر نفسه مسئولاً عن وعد الإنجليز بالاعتراف بالاستقلال العربي. وهو يكثر من التأكيدات إلى درجة التعهد بحياته كضمانة لحسن النوايا البريطانية. إلا أنه بما أنه مقتنع بأن هذا كله ليس غير احتيال واسع، مادام الإنجليز على استعداد لتسليم جزء من الأراضي العربية إلى الفرنسيين، فإنه لا يقدر على نسيان لا أخلاقية دوره.

كل هذا يقوده إلى تعريض نفسه لمخاطـــر قصوى، كما لو أنه يبحث عن الموت. لكن ما ينتظره في درعا أسوأ بكثير

إذ يتخذ فيصل من العقبة قاعدة له، فإنـــه يبتعـــد عـــن والـــده جغرافياً ومعنوياً. وهو يشارك قليلاً في العمليات العسكرية وينكـــب بلا كلل على مهمته المتمثلة في البناء السياسي، حاشداً حوله قبـــائل شرقي الأردن ومنظماً جيشاً نظامياً، بفضل الضباط السابقين العرب في الجيش العثماني، ومعظمهم ينحدر من بلاد الرافدين. أما فيمـــا يتعلق بلورانس، فإنه يواصل شن غارات تدمير على ســـكة حديـــد الحجاز. وإذا كانت النجاحات متفاوتة، فإن اللنبي سعيد بالإزعـــاج الذي أصاب المواصلات العثمانية. وهو يعتمد على لورانـــس فـــي هجومه الكبير في الخريف ويكلفه بعملية ضد مفرق السكة الحديـــد في درعا وبعد تفكير، يرفض لورانس استثارة انتفاضة في منطقـــة تقع في أقصى الشمال ومعزولة عن الثورة. والواقـــع أن الســـكان المحليين سوف يتعرضون لتدابير انتقامية رهيبـــة، بعـــد الرحيـــل الحتمي للطابور التابع للأشراف. وبدلاً من ذلـــك، يقـــترح غـــارة جسورة تهاجم جسور السكة الحديد في اللحظة التي يشن فيها اللنبـــي هجومه. وهذا الأخير يقبل ذلك.

ووفقاً لعادتها، تقوم قوة لورانس الصغيرة بتجنيدٍ في الساحة للرجال الضروريين للهجمات. إلاّ أنه هذه المرة، تحدث حالات فرار، أفدحها هو فرار عناصر جزائرية مستقرة في سوريا تحت قيادة عائلة الأمير عبد القادر الجزائري. ويفشل الهجوم على أحد الجسور وتتعثر بقية العمليات في برودة وأمطار نوفمبر/ تشرين الثاني. ويحزن لورانس لعجزه عن الوفاء بوعوده لأللنبي ويشعر بأن مصداقيته كلها مهددة. وفي تلك الأثناء، بفضل مناورة جعلت الخصم يتصور أن اللنبي سوف يهاجم غزة بينما هو يحشد قواته في النقب، ينجح الأخير في تمزيق الجبهة العثمانية في بئر سبع، ثم ينجح في الاستيلاء على غزة في ٧ نوفمبر/ تشرين الثاني. على أن تقدمه يتعثر بسبب سوء الأحوال الجوية وبسبب واقع أن العثمانيين ينسحبون في نظام جيد مع مواصلتهم القتال.

وفي ٢٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧، يقرر لورانس القيام بمهمة تجسس في داخل درعا، إلاّ أنه يتم إلقاء القبض عليه من جانب عدد من الحراس الذين يحسبونه فاراً شركسياً. وفي الساعات التالية، يقال إنه تعرض لعروض جنسية مثلية من جانب والي المدينة. وبما أنه يرفض، فإنه يجري ضربه بقسوة ثم اغتصابه (من جانب الوالي أو من جانب الجنود، يصعب أن نعرف ذلك كما أن من الصعب أن نعرف ما إذا كانوا قد تعرفوا عليه أم واصلوا

اعتباره شركسياً). وبعد أن تركوه في أحد الأركان، نجح في الهرب واللحاق برجاله.

وكغالبية الشبان من جيله ومن وسطه الاجتماعي، لـــم يكــن لورانس قد مر بأية تجربة جنسية. كما أن فظاعة هذا الاغتصـــاب لابد أنها كانت رهيبة، بينما كان يعاني بالفعل مـــن شـــعور قـــوي بالذنب.

رجل محطم معنوياً وبدنياً هو الذي يلحق بأللنبي

هذا الأخير يدعوه إلى المشاركة في الدخول المـــهيب لقـــوات الحلفاء إلى القدس فـــي ١١ ديســمبر/ كـــانون الأول ١٩١٧. وإذ يستأنف لورانس الاتصال برؤسائه يكتشف أن أطروحاته السياســـية قد اعتمدت. ففي لندن والقاهرة والقدس على حـــد ســـواء، يجـــري السعي إلى تهديد اتفاق سايكس ـــ بيكو وقصر الوجود الفرنسي فـــي المشرق العربي على أرض لبنانية صغـــيرة. ورداً علـــى بيكـــو، الموجود في القدس، والذي يطالب بإنشاء إدارة مدنية في القـــدس، حيث سيكون للفرنسيين مكانهم، بموجب محتوى الاتفـــاق، يرفـــض اللنبي ذلك ويفرض القانون العســـكري علـــى مجمـــل الأراضـــي

المفتوحة سعياً إلى منع انبثاق أية سلطة أخرى غير سلطته. وفي الوقت نفسه، يعلم لورانس بوجود تصريح بلفور، الذي مر شهر على صدوره (لكن البريطانيين حظروا نشره في الشرق الأدنى) والذي تؤيد الحكومة البريطانية بموجبه إنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين. وخلال إقامته الأولى في الشرق، كان قد عبر عن آراء مؤاتية للصهيونية، بل إنه قد حث فيصل على عدم التحرك في غربي خط البحر الأحمر ــ البحر الميت ــ الأردن، بما يؤدي إلى ترك فلسطين جانباً. وكانت للثورة صلات طيبة مع اليهود العرب في الجليل، في حين أن المستوطنين اليهود الأوربيين قد حرصوا من الناحية الظاهرية على الابتعاد عن النزاع بين العرب والأتراك. ومع اعتراف لورانس بأهمية تعلق الفلاحين الفلسطينيين بأراضيهم وبواقع أن الأمور سوف تتغير مع قيام دولة عربية على حدود فلسطين، إلاّ أنه لا يحب «فلاحي فلسطين الكئيبين هؤلاء، الأكثر غباءً من صغار الملاك في شمالي سوريا، والماديين كالمصريين والخربين» ويرى في وعد وطن قومي يهودي المرحلة الأولى نحو إلغاء اتفاق سايكس ــ بيكو.

ومن جهة أخرى فقد حان الوقت لمنازعة محتوى هذا الاتفاق: فالبلاشفة، الذين استولوا على السلطة في الشهر السابق، قد نشروه

للتو والدعاية العثمانية تستخدم تصريح بلفور للتنديد بخيانة الحلفاء للعرب. وعلاوة على ذلك فإن الولايات المتحدة التي دخلت الحرب كشريك وليس كحليف لدول الوفاق، ترفض الاعتراف بالاتفاقات الإمبريالية، مشيرة إلى أنها تتعارض مع حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

وبالرغم من حالته المعنوية والبدنية، يستأنف لورانس مهمته وسوف يرافق العرب حتى نهاية المغامرة وقد أوضح اللنبي له جيداً أنه يحتاج إليه دائماً. وتتألف استراتيجية الجنرال من خلق انطباع بأنه سوف يركز مجهوده على شرقي الأردن في حين أن هجومه، الذي تقرر أن يتم في الربيع، سوف يحدث في الواقع على السهل الساحلي. وكلما أصبح عمل الأشراف نشيطاً، كلما أمكن لاستراتيجية اللنبي أن تؤتي ثمارها.

مصير لورانس يصبح مرتبطاً بالثورة العربية. وسوف يدخلان معاً في أسطورة القرن العشرين

حتى ذلك الحين، كان الحلفاء قد تجنبوا القيام بدعاية للثورة العربية، خارج العالم الإسلامي. إلاّ أنه مع تهديد اتفاق سايكس ــ

بيكو يتغير الموقف ويشجع البريطانيون الصحافة الدولية على نشر تقارير عن عمل الأشراف. وهكذا، يجري التصريح لصحافي أمريكي شاب، هو لويل توماس، بالإقامة في العقبة. وسرعان ما يرى أنه يحرز «السبق الصحافي» للعصر ويكثر من الكليشهات الفوتوغرافية والمبالغات، بتشجيع من السلطات ومن لورانس نفسه، الذي رقي إلى رتبة ليوتنانت ــ كولونيل في ١٢ مارس/ آذار ١٩١٨. وهكذا يبدأ ما سوف يصبح أسطورة لورانس العرب.

والحال أن وحل وثلج الشتاء الفلسطيني يحولان دون أية عملية عسكرية. وينتظر اللنبي الربيع لكي يستعد لاستئناف الهجوم. إلاّ أنه يفاجأ بسحب جزء من قواته، جرى إرساله إلى أوروبا لمواجهة الضربات العنيفة للهجمات الألمانية الكبرى الرامية إلى إحراز الانتصار قبل وصول القوات الأمريكية.

وانعدام اليقين في أوروبا له صداه على الجبهة الشرقية. إذ يجري الإنجليز مفاوضات سرية مع العثمانيين في سويسرا للتوصل إلى صلح منفرد.

ومن جهته، يفتح فيصل خط اتصال مع العثمانيين الذين يعلنون استعدادهم للاعتراف بحكم ذاتي للعرب. ولورانس يشجعه بقوة في هذا الطريق. وبسبب انزعاجهم، يقرر الإنجليز إضفاء

الشرعية على سلطة فيصل على الأراضي الواقعـــة إلـــى شـــرق الأردن والإكثار من التصريحات التي تتحدث عن حق العرب فـــي تقرير مصيرهم. بل إن آخر تصريح، والمـــؤرخ فـــي ٧ نوفمـــبر/ تشرين الثاني ١٩١٨، سوف يشارك في التوقيع عليه الفرنســـيون، الراغبون في طمأنة الأمريكيين المنزعجين من أطماع حلفائهم فـــي الحرب. وفيما بعد، سوف يرى البريطانيون أن ممـــا يدعـــو إلـــى الأسف أنهم قد نشروا هذا التصريح في فلسطين.

وفي أبريل/ نيســـان ١٩١٨، ولأول مـــرة، تواجـــه القـــوات النظامية للثورة العربية القوات العثمانية مواجهة مباشرة في معركـة معان. والنتيجة مرضية، حتى وإن كانت المدينة تبقى فـــي أيـــدي الأتراك. وفي تلك الأثناء، يصل تخريب خطوط الســـكك الحديديـــة إلى ذروته. وفي الأشهر التالية، تبقى القوى المختلفة في مواقعـــها. والحال أن اللنبي، الذي يحصـــل على تعزيزات قادمة من الـــهند، يعيد تنظيم قواته ويستعد لهجوم كبير في شهر سبتمبر/ أيلول.

لورانس، بالرغم من اكتئابه، ينكب
بالكامل على تنظيم عملية اللنبي

إلاّ أنه يتعين عليه مواجهة أزمة سياسية شديدة مـــع حســـين. فالواقع أن الشريف قلما يتسامح مع استقلالية فيصل المتعاظمة وهـو

يجد أن ابنه خاضع جداً للمؤثرات البريطانية. ويرفض أن يرسل إليه رجالاً كما يرفض استقبال لورانس. وسوف يمضي إلى حد الاعتراض على التعيينات التي قام بها فيصل في جيشه لحساب ضباط من بلاد الرافدين. وهؤلاء الأخيرون يستقيلون عشية هجوم اللنبي. وينقذ لورانس الموقف بالتلاعب برسائل الراديو بين حسين وابنه، حيث كان الأشراف يعتمدون في اتصالاتهم على الخدمات البريطانية التي كانت تفك بالطبع شفراتهم.

وهكذا فإن العرب يلعبون عين الدور الذي حدده لهم اللنبي. والحال أن حشود قوات الأشراف (٨٠٠٠ جندي نظامي وعدد غير محدد من البدو) وغارات المسافات الطويلة عبر شرقي الأردن قد جعلت الأتراك يتصورون أن ذلك هو المحور الرئيسي للهجوم الإنجليزي ـ العربي. وفي ١٩ سبتمبر/ أيلول، ينجح اللنبي في اختراق الجبهة التركية في السهل الساحلي. وتنسحب القوات العثمانية في فوضى نحو الشمال ـ الشرقي، مما يؤدي إلى الانسحاب الشامل للحاميات شرق الأردنية. ويتسارع هذا الانهيار من جراء هجمات الأشراف التي تقطع خط السكة الحديد. ووسط ارتباك الأتراك، يذبحون سكان قرية طَفَس العربية. وفي ٢٦ سبتمبر/ أيلول، يهجم رجال لورانس غاضبين على طابور للعدو ولا يبقون على أحد أسيراً.

والآن يصبح طريق دمشق مفتوحاً. والحال أن قوة الفرسان الأستراليين التي أرسلها اللنبي عبر الجولان تسبق بقليل دخول الأشراف إلى المدينة المهجورة. إلاّ أنه في أول أكتوبر/ تشرين الأول بالفعل، كان القوميون العرب قد سيطروا على المدينة باسم فيصل. وبعد أن ساعد لورانس في العملية الصعبة الخاصة بإعادة النظام إلى دمشق بسبب صدامات بين الأشراف والدروز والجزائريين، يطلب على الفور إذناً بالذهاب إلى أوروبا. وهو يرحل في ٤ أكتوبر/ تشرين الأول. ولن يعود أبداً إلى سوريا. وسبب رحيله السريع، بخلاف الاشمئزاز الذي يلازمه حيال مشهد أعمال العنف الأخيرة، هو الدفاع عن قضية فيصل في المناورات الديبلوماسية الكبرى القادمة.

الفصل الرابع
صانع الدول

بعد أن عاش لورانس حياة البدو
الفظة، لا يبدو أنه غريب في الدوائر
العليـــا للديبلوماسيـــة الدوليـــة

يصل لورانس إلى لندن في أواخـــر أكتوبـــر/ تشـــرين الأول ١٩١٨ ويبدأ حملة من أجل تحقيق مخططاتـــه السياســـية. ويجـــب القول بأن أفكاره تتوافق إلى حد بعيد مع التوجهات العامة للحكومـــة البريطانية: إعادة النظر في اتفاق ســـايكس ــ بيكـــو، منازعـــة الوجود الفرنسي في سوريا، ربما باستثناء مناطق لبنانيـــة، إنشـــاء وطن قومي يهودي في فلســـطين. لكـــن هدفـــه الثـــانوي، إنـــهاء السياسيـــة «الاستعمارية» لحكومة الهند في بلاد الرافدين، يجـــازف بجر عداوة جزء من جهاز السلطة له. وكل شيء يتم باســـم مبـــدأ تقرير المصير.

والتباس مؤتمر الصلح يكمن في الملاءمة بين الأطماع البريطانية في الشرق الأدنى والخطاب السياسي السائد منذ عام ١٩١٧: إنهاء الإميريالية وتأكيد حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. وإذا كان الإنجليز ـ الهنود يبدون متخلفين عندما يؤكدون أن سكان بلاد الرافدين يجب أن يخضعوا لحكم مديرين بريطانيين «نزيهين ومنصفين»، فإن جماعة القاهرة تلعب على الكلمات بطرحها كمسلمة أن مصطلح «استقلال البلدان العربية» لا يعني غير تفكيك الدول العثمانية.

لورانس وأصدقاؤه يعتقدون بإخلاص أن العرب يتمنون وصاية بريطانية طويلة الأمد بما يكفي

ومن جهة أخرى، عندما يحتج العرب على السياسة الإنجليزية، مثلما يفعل ذلك الفلسطينيون، فإنهم يكفون عن أن يكونوا عرباً أنقياء وحقيقيين ليصبحوا «شواماً بشعين». وفي نوفمبر/ تشرين الثاني، يعرض لورانس آراءه على الأوساط الحاكمة البريطانية: إنه يقترح تقسيم الشرق الأدنى إلى أراض ممنوحة لمختلف أبناء الشريف حسين: بغداد وبلاد الرافدين السفلى لعبد الله، بلاد الرافدين العليا لزيد، سوريا لفيصل مع ممر إلى

البحر، على أن يخلف علي والده في الحجاز. وهو يرفق مذكرته بمبادرة مثيرة: رفض الحصول على نيشان من الملك بسبب انعدام نزاهة السياسة البريطانية حيال العرب.

ويحتل لورانس مكانة أساسية في الترتيب البريطاني، فهو محادث الهاشميين. ولا أحد يعرف ولا يريد أن يعرف ما إذا كان عضواً في الوفد البريطاني إلى المؤتمر أم مستشار فيصل المختار لتمثيل العرب في فرساي ـ إن البريطانيين، الحذرين، قد حاولوا منع وجود وفود عربية أخرى، مصرية أو فلسطينية أو لبنانية ـ بالرغم من تحفظات حسين الذي يجد ابنه تحت نفوذ قوي من جانب لورانس الذي يرتاب فيه منذ وقت بعيد.

وفي أول ديسمبر/ كانون الأول، يجتمع لويد جورج وكليمنصو من غير مستشاريهما. والحال أن الفرنسي، الراغب في تجنب مواجهة، يقترح اتفاقاً شفهياً: تتخلى فرنسا عن مطالبها في فلسطين وبلاد الرافدين العليا، وفي المقابل تعترف بريطانيا العظمى بالنفوذ الفرنسي على سوريا. وسوء التفاهم كامل بقدر ما أن لويد جورج يتصور أنه بمواصلته التشدد سوف يتمكن من اختزال المواقف الفرنسية (في ذلك الوقت يبدأ الجيش الفرنسي في الاستقرار على الساحل السوري ـ اللبناني وفي جنوبي الأناضول)، بينما كان الفرنسيون عازمين على عدم تقديم تنازلات إضافية.

وإذ كان لورانس يجهل نتائج هذا اللقاء، فإنه يدقق استراتيجيته: يجب الضغط على فرنسا بالحصول على دعم الأمريكيين بفضل التوصل إلى اتفاق مع الصهيونيين. وعندما يصل فيصل إلى لندن، في الأيام العشرة الثانية من ديسمبر/ كانون الأول، يجتهد لورانس في كسب قبوله لهذا المشروع.

لورانس وفيصل ووايزمان

ما تزال الحادثة غامضة لأننا لا نحوز غير نصوص مكتوبة بالإنجليزية، حررها لورانس ووقعها فيصل الذي لا يعرف الإنجليزية، في حين أن تصريحاته بالعربية وبالفرنسية، التي يتكلمها بشكل طيب، تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. والحال أن لورانس قد اعترف بأنه قد تلاعب بالمراسلات بين فيصل ووالده.

لقد كان فيصل يعرف خاصة اليهود العرب وكان يعتقد أنه لا مجال هناك للدخول في نزاع معهم. وفي تصريحاته (بالعربية وبالفرنسية)، يقبل مبدأ مساواة في الحقوق بين العرب واليهود في فلسطين، وفقاً لشعار الثورة العربية لدى وصوله إلى سوريا «لكل ديانته والوطن للجميع»، مستبعداً كل اعتراف بالحقوق القومية

للصهيونيين. وتحت ضغط من لورانس والمسـئولين البريطـانيين، يعترف فيصل بأنه يجب ايلاء الأولويـة للمسـألة السـورية، فـي مواجهة الدعاوى الفرنسية، وأنه فيما يتعلق بفلسطين، فإن العـرب ليسوا مستعدين لتحمل مسئولية إدارة منطقة لها أهمية كبيرة بالنسبة لبقية العالم: ومن ثم، فإن إنشاء وصاية خارجية (وصاية بريطانيـا العظمى أو في نهاية الأمر وصاية الولايات المتحدة) إنما يفـرض نفسه بالنسبة للأرض المقدسة.

وفي ٣ يناير/ كانون الثاني ١٩١٩، في لندن، يدفعه لورانـس إلى توقيع اتفاق مكتوب بالإنجليزية مع وايزمان، زعيـم الحركـة الصهيونية، يشار فيه إلى أوثق تعاون ممكن بين فلسطين ينشأ فيـها وطن قومي يهودي ودولة عربية في دمشق. لكن الهاشمي يضيـف ملحقاً بالعربية يجعل فيه تنفيذ الاتفاق مشروطاً بـالتحقيق الكـامل لمطالبه الاستقلالية.

ويتكرر الالتباس نفسه في فرنسا. فهناك، ليس فيصل وحيـداً، بل هو في صحبة عدة مستشارين سياسيين عـرب يرتـابون فـي الأطماع السياسية الأوروبية. على أن لورانس سوف يفعل كل شيء من أجل الاحتفاظ باحتكار علاقات فيصل مـع الخـارج. وهكـذا، فعندما يدلي الأمير بحديث صحافي معادٍ للصهيونية فـي صحيفـة

لوماتان الفرنسية، يسارع لورانس إلى تحرير تكذيب يؤكد فيـــه أن هناك مكاناً كافياً في فلسطين لشعبين ويدفع فيصل إلى التوقيع عليــه في أول مارس/ آذار ١٩١٩.

استراتيجية لورانس سوف تقود فيصل
إلى مأزق سياسي حقيقي

إن كليمنصو، الذي لم يكن قط مؤيداً للاستعمار، مستعد للتفاهم مع الهاشميين على الأساس عينه كالإنجليز: وصايـــة مرنـــة جـداً ومؤقتة. وبشكل موازٍ، فإن حضور لورانس الطاغي يثـــير غيـظ الفرنسيين. فهؤلاء ينفرون من قبول فيصـــل يبـدو لـــهم صنيعـة للبريطانيين. ثم إن دعم الصهيونيين، البعيد عن أن يكون قد ســاعد الحركة العربية، هو عامل مفاقم للموقف، فالمسألة، بالنسبة لباريس، هي أيضاً هنا مسألة حيلة من جانب الإنجليز للتنصل من وعودهـم. ولم يكن لورانس قد أدرك ثقل الإرساليات التبشـــيرية الأمريكيـة، الأوسع نفوذاً بكثير من الصهيونيين لدى الرئيس ويلســون، والتـــي تشير إلى تعارض المطالب العربية والصهيونية... ولورانس نفســه يبدأ في إدراك ذلك ويلقي بالمسئولية عن تدهـــور العلاقـــات بيـــن العرب الفلسطينيين والصهيونيين علـــى دوي بعـض تصريحـــات المسئولين الصهيونيين، كالمطالبة، مثلاً، بإنشاء دولة يهودية.

والحال أنه كلما مرّ الوقت كلمـــا افتقــر البريطـانيون إلـــى إمكانيات إبقاء قوات مسلحة ملحوظة في الشرق (مليون رجل فـــي بداية عام ١٩١٩). فالأزمة الاقتصاديــــة بعــد الحــرب وتكــاثر المصاعب السياسية التي تواجهها الإمبراطورية (القوقـــاز، الـــهند، مصر، إيرلنده) يوضحان على نحو صارخ للمسئولين البريطـــانيين أنهم لم يعودوا يملكون إمكانات تحقيق سياســتهم. وفـــي ســبتمبر/ أيلول يضطر لويد جورج إلى إعلان انسحاب القوات البريطانية من سوريا، بما يترك الفرنسيين والأشراف وجهاً لوجه.

وخلال المؤتمر، يتأثر لورانس تأثراً شديداً بموت والـــده فـــي أبريل/ نيسان ١٩١٩. وفي تلك الفترة يبدأ في كتابة قصة مغامرتـــه في الشرق، مستعيداً عنوان مشروع كتاب يرجع إلى ما قبـــل عـــام ١٩١٤، **أعمدة الحكمة السبعة**. وراغبـــاً فـــي اســتعادة أوراقـــه الشخصية في مصر، ينتهز فرصة رحلة لطائرة تتبع ســلاح الجـــو الملكي إلى القاهرة. وتتحطم طائرته في مطار روما في ١٧ مـــايو/ آيار، إلاّ أنه تتاح له فرصة النجاة من الحادث بكسر فـــي الكتـــف وبعض الرضوض. وهو لن يصل إلى العاصمة المصرية إلاّ فـــي أواخر يونيو/ حزيران، بعد أن رقد للراحة لبضعة أيام.

وفي تلك الأثناء، فإن ضباط بلاد الرافدين المحيطين بفيصــــل في دمشق يقومون بدعاية نشيطة ضد الوجود الإنجليزي في العراق

بل ويعدون لانتفاضة. وفي هذا السياق، ينفجر الإنجليز ــ الهنود ضد لورانس، المسئول في نظرهم عن جميع مصائبهم. وأخيراً، يجري آنذاك اكتشاف أن وزارة الخارجية تعتبر لورانس تابعاً لوزارة الحربية بينما تعتبره وزارة الحربية تابعاً لوزارة الخارجية ! والحال أن كشف هذه الغرائب الإدارية، المعروفة تماماً للجميع، إنما يوضح أن لورانس يزعج الآن المسئولين البريطانيين وأن وجوده لم يعد مرغوباً فيه في فرساي، حيث سيجري ترك فيصل يتدبر أمره وحيداً مع الفرنسيين.

بعد أن تعب لورانس من كل هذه
الدسائس، فإنه يقبل وظيفة
باحث متفرغ (*fellow*) في أكسفورد

على أن لورانس، عندما يعلم أن السياسة البريطانية تتجه نحو وفاق مع الفرنسيين، يحاول التأثير بشكل مباشر على الرأي العام. ففي رسالة إلى **التايمز** في ٨ سبتمبر/ أيلول ١٩١٩، يعرض مختلف التعهدات المقدمة إلى العرب ويدعو إلى مراعاة مصالح هؤلاء الأخيرين. وفي ٢٧ سبتمبر/ أيلول، يرد على اللورد كيرزون، الذي طلب منه التدخل لدى فيصل لإفهامه أنه يتوجب عليه بصورة مطلقة أن يتفاهم مع الفرنسيين، بأنه لن يفعل ذلك إلاَّ

إذا جرت إعادة نظر في شروط اتفاق سـايكس ـ بيكـو، بإلغـاء مناطق النفوذ غير المباشر لصالح وصايـة مشـتركة فرنسـية ـ إنجليزية على الدولة العربية: وكلما أصبح الإنجليز أكثر «ليبراليـة» كلما تسنى إجبار الفرنسيين على أن يكونوا ليبراليين. ولأول مـرة يحدد بدقة، في ذلك الرد، رؤيته السياسية: «إن طموحي الشـخصي هو أن يكون العرب أول دومينيـون لنـا ـ وليـس مسـتعمرتنا الأخيرة ـ ببشرة برونزية. إن العرب سـوف ينقلبـون عليكـم إذا حاولتم سوقهم، وهم صلبون صلابة اليهود، إلاّ أن بالإمكان قيادتـهم في كل مكان دون استخدام القوة، إذا كانت هذه القيادة مخاصرةً مـن الناحية النظرية. ومستقبل بلاد الرافدين جد عظيم بحيث إنـه لـو صار هذا البلد صديقاً لنا لأمكننا، من خلاله، أن نسـتميل مجمـل الشرق الأوسط». على أن آراءه لم تُتَبَع.

إلاّ أنه في عين اللحظة التي تكف فيها الأوساط الرسميـة عن الإنصات إليه، يصبح فجأة شـهيراً. فلويـل تومـاس، الصحـافي الأمريكـي الذي كان قد زار العقبة في مارس/ آذار ١٩١٨، يبـدأ سلسلة من المحاضرات ـ العروض الفيلمية حيث يـروي القصـة الرومانسية لهذا الإيرلندي، أمير مكة، الذي يوحد العـرب خـلال الحرب، وبطل آخر حرب صليبية. وفي غضون بضعـة شـهور، يحضر أكثر من مليون شخص عروض توماس. ودون أن يسـعى

إلى ذلك كما هو واضح، يصبح «لورانـــس العـــرب»، المشـــهور عالمياً. وبهذه الصفة، يمكن اعتباره واحداً من أوائل مخلوقــات أو ضحايا وسائل الاتصال الجماهيري. وفي الأشهر التالية، ينســحب لورانس ويواصل كتابة كتابه **أعمدة الحكمة السبعة**.

وفي ديسمبر/ كانون الأول، يتوصل فيصل إلـــى اتفــاق جــد ليبرالي مع كليمنصو، تم التفاوض عليه من خلال لويس ماســينيون؛ إلاّ أنه خلال الأشهر الأولى من عـــام ١٩٢٠، يشـــدد الفرنســيون والعرب مواقفهم. ففي مارس/ آذار، يعلن فيصل نفسه ملكــاً علــى سوريا، بما في ذلك فلسطين؛ وفي أبريل/ نيسان، يقسّم مؤتمر ســان ريمو الشرق الأدنى إلـــى انتدابيــن فرنســي (ســوريا ــ لبنــان) وإنجليزي (فلسطين ــ العراق)، دون مراعاة المطالب العربية.

في كل مكان، من مصر إلى العراق،
تهدر الثورة ضد الدولتين العظميين
الإمبراطوريتيين

عندئذ يوحد لورانس مجموعة كاملة غير رسمية من السياسيين والخبراء المدنيين والعسكريين الذيــن يدعــون إلـــى إنشـــاء إدارة منفصلة لمعالجة مشكلات الشرق الأوسط، يحددها بأنـــها المجــال

الممتد من وزارة الخارجية إلى وزارة شئون الهند. وهو يستخدم شهرته الجديدة لشن حملة صحافية حول هذه الفكرة. ويعلن ثورة آسيا: إن الإمبراطورية البريطانية لم تتأسس إلاّ على القبول السلبي من جانب أكبر عدد من رعاياها؛ والحال أن الثورة البلشفية هي درس واقعي بالنسبة لآسيا العربية، إنها «التمرد الناجح لأشباه المتعلمين والفقراء». ومن ثم يجب هجر سياسة لن تؤدي إلاّ إلى استخدام للقوة غير مفيد.

وفي الأسابيع التالية، تنشب الثورة في بلاد الرافدين. وفي يوليو/ تموز، يستولي الفرنسيون على دمشق ويطردون فيصل. وفي ١٨ أغسطس/ آب ١٩٢٠، يؤكد لورانس علناً أن الفرنسيين لم يفعلوا سوى التصرف في سوريا كما تصرفت وزارة شئون الهند في بلاد الرافدين. وحملته الصحافية تبلغ ذروتها في ٢٢ أغسطس/ آب في مقال للأوبزرفر يهاجم فيه بعنف وتهكم السياسة الإنجليزية ـ الهندية في المنطقة: إن الأتراك لم يقتلوا في المتوسط غير ٢٠٠ عربي في السنة لكي يحافظوا على النظام؛ أما نحن فقد قتلنا للتو ١٠٠٠٠ منهم؛ «ولا يمكننا الأمل في الحفاظ على متوسط كهذا، فنحن بازاء بلد فقير يشكو من ضعف كثافة السكان!». والحال أن لورانس، الذي لا ينوي على أية حال مواصلة الاشتغال بالسياسة، يتلقى اتصالاً من تشرشل، الذي يتولى قيادة وزارة المستعمرات في

فبراير/ شباط ١٩٢١. وهو يقبل أن يصبح مستشار رجل الدولة الذي ينشئ إدارة للشرق الأوسط، تعد آسيا الناطقة بالعربية حقل عملها.

بالنسبة للورانس، فإن دور ملهم تشرشل هو بالدرجة الأولى وسيلة لتسوية المسائل العربية بما يتماشى مع أفكاره

تصبح تكلفة الاحتفاظ بشرق أوسط مضطرب باهظة بالنسبة للمالية البريطانية. بل إن الحديث يدور عن انسحاب في نهاية الأمر من بلاد الرافدين (كانت النفقات أفدح في هذه العملية مما في تمويل الثورة العربية). والحال أن واقع أن بريطانيا العظمى لا تستطيع تحمل تكاليف إدارة مباشرة لأراضيها العربية الجديدة إنما يسهل إلى حد بعيد مهمة لورانس. وشأنه في ذلك شأن تشرشل، فإنه يرى أن الوجود العسكري الإنجليزي يجب اختزاله إلى بعض وحدات النخبة المدعومة بسلاح طيران قوي، وأنه يجب إدارة المنطقة من خلال حكام محليين مدعومين بمستشارين بريطانيين.

وفي مارس/ آذار ١٩٢١، فإن مؤتمر القاهرة، الذي يجمع كل المسئولين عن سياسة الشرق الأوسط، يقرر الخريطة السياسية

الجديدة للمنطقة. وبالرغم من الاحتجاجات الفرنسية، سوف يحصل فيصل على عرش العراق، بينما سوف يجري الاعتراف بعبد الله أميراً لشرقي أردن منفصل عن فلسطين. وبعد اتفاق الأخوين، يجري تكليف لورانس بالحصول على تصديق الملك حسين عليه. وهو يقضي شهري أغسطس/ آب وسبتمبر/ أيلول في الحجاز لدى شريف مكة، لكن هذا الأخير يرفض بصورة مطلقة الموافقة على النظام البريطاني الجديد، وخاصة الانتداب الفلسطيني والوطن اليهودي. وبعد هذه الإقامة بالغة القسوة من الناحية المعنوية، يجري تعيين لورانس ممثلاً بريطانياً أول لدى عبد الله في شرقي الأردن. وهو يساعده في إرساء دعائم دولته الجديدة، ثم يرجع إلى إنجلترا في أواخر ديسمبر/ كانون الأول. وبالرغم من مناشدات تشرشل المتكررة، فإنه يقدم استقالته، سارية المفعول اعتباراً من أول مارس/ آذار ١٩٢٢. وهو لن يعود أبداً إلى أي بلد عربي.

في عام ١٩٢٢ هذا، يستخلص لورانس درس مغامرته العربية

يؤكد لورانس «اعتقاده بأن إنجلترا خرجت من المسألة العربية نظيفة اليدين. والحال أن بعض المماحكين العرب ـ أكثرهم صخباً

موالون في زمن ما بعد الهدنة ــ قد رفضوا رأيي في هذه النقطة. وكمعوقٍ لا يحتمل، أظهرتُ لهم جراحي ــ أكثر من ستين جرحاً ــ تشهد ندوبها على معاناتي في خدمة العرب: إنها البرهان على أنني قد عملت بإخلاص في معسكرهم. وقد وجدوني شخصاً عتيقاً، وكنت سعيداً بالانسحاب من وسط سياسي لم أعتبره قط بالفعل وسطي». وفي الوقت نفسه، يؤلف قصيدة يمهد بها **لأعمدة الحكمة السبعة** ــ على غرار سونيتات شيكسبير ــ ويهديها إلى س. أ.

وقد ظلت شخصية س. أ. لغزاً وطُرحت بشأنها تخمينات كثيرة، يظل أكثرها رجحاناً إما داهوم أو تجريد ما ــ الثورة العربية ــ أو الاثنان معاً. ويوضح هذان النصان بكثافة قوية إلى أي حد كان انخراطه إلى جانب العرب حسياً، إلى أي حد كان وجوداً جسدياً، قبل أن يكون رؤية سياسية.

ويبقى أن لورانس هو أيضاً خادم للإمبراطورية البريطانية. وهجماته العنيفة على السياسة الاستعمارية لحكومة الهند هي جزء من الصراع المتواصل بين المستويين البيروقراطيين. وعداوته للاستعمار الفرنسي تتراصف مع سياسة البريطانيين اعتباراً من أواخر عام ١٩١٦، وهو لا يستطيع تصور مستقبل العرب المباشر إلاّ ضمن إطار وصاية إنجليزية، قد تكون شديدة القسوة، كما سوف

يدرك ذلك فيصل وعبد الله في العشرينيات. وبالنسبة للمسئولين البريطانيين، فإن الهاشميين لا يبدون غير نكران الجميل عندما يحاولون إيجاد استقلال لا يخضع للسياسة الإنجليزية.

وترجع أصالة رؤية لورانس إلى واقع أنه يرى أن وجود البريطانيين لابد أن يكون مؤقتاً.ففي مستقبل قريب نسبياً، سوف يجلون عن هذه المناطق. وعندئذ سوف تصبح الدول الجديدة مستقلة تماماً. وبشكل ساخر، يوضح للفرنسيين، في ٧ أبريل/ نيسان ١٩١٩، أن الوطن القومي اليهودي في فلسطين، والذي سوف يصبح دولة يهودية، سوف يفصل مصر عن العالم العربي: «إننا نخشى كثيراً على مصر من حركة عربية قادمة من سوريا؛ عندما تخرجون منها، إذ لن يكون بوسعكم البقاء في سوريا بأكثر من أن يكون بوسعنا البقاء في بلاد الرافدين؛ وفي غضون أربعين عاماً، لا أنتم ولا نحن سوف نكون موجودين في تلك البلاد التي تقدم سكانها كثيراً. وبالنسبة لمصر، سيحدث هذا أيضاً، إن لم نحرص على قناة السويس، وأعتقد من جهة أخرى أننا سوف ننتهي إلى ترك الدلتا، مع الحفاظ على أمن القناة؛ وسوف يتوجب علينا في نهاية المطاف أن نترك هذه البلاد لحالها، كما فعلنا بالنسبة لمستعمراتنا».

وبشكل مباشر، يسهم عمل لورانس السياسي في تقسيم العالم العربي إلى عدة دول تمر بتحول سافر كما يسهم في انبثاق النزاع الإسرائيلي ـ العربي. أما في الأمد الأطول، فإن أسطورة لورانس العرب، القائمة على تأكيد البعث العربي والثورة ضد الأتراك، سوف تكون أداة دعاية قوية في العالم الغربي لصالح الحركة القومية العربية.

الفصل الخامس
محو الذات

بعد عام ١٩١٨، يصبح ت. أ. لورانس
كاتباً كبيراً من كتاب اللغة الإنجليزية

كان لورانس ما قبل عام ١٩١٤ يحلم باجتراح مآثر عظيمة، على أنه لم يختر العمل العسكري ولا العمل في الخدمة العامة ولم يبد أي ميل إلى الحياة السياسية. وبخلاف التاريخ والأركيولوجيا، كان الأدب هو غرامه الوحيد. وكان يطمح إلى كتابة كتاب «جبار»، على غرار نماذجه الأدبية: **الأخوة كارامازوف**، **زرادشت**، **موبي ديك**. وكانت فكرته الأولى أن يكتب تاريخاً للحروب الصليبية، ثم تحول إلى سرد لرحلة في الشرق حول سبع مدن، القسطنطينية، بغداد، القدس، دمشق... وقد استمد عنوانه من آية في التوراة تذكر «الحكمة بنت بيتها. نحتت أعمدتها السبعة». (سفر **الأمثال**، الإصحاح التاسع، الآية الأولى). إلاّ أنه خلال صيف ١٩١٤ أحرق الفصول التي كان قد كتبها بالفعل.

لقد غيرت الحرب كل شيء. وبوسع المرء أن يقوم فيها بعمل إبداعي ليس بالكلمات وإنما بالرجال؛ وقد تحقق الحلم البطولي في كابوس أعمال عنف وجراح كانت حادثة ودرعا ذروتها. ومن عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٢٢، لم يُكتب له البقاء إلاّ بفضل سيطرته غير العادية على الذات. ومنذ انتهاء الحرب، يعود إلى الأدب بوصفه وسيلة لعلاج «سرطان الجسد»، بحسب تعبير لويس ماسينيون. ومنذ حادثة الاغتصاب، لا يعود يحتمل الاتصال الجسدي، ويبدو أنه، حتى نهاية حياته، لن يعرف ما هي العلاقات الجنسية، إلاّ عبر السماع. وكتابة سرد مغامرته هو أول علاج لـ«عُصاب الحرب» هذا الذي شخّصه معاصروه. إن كل صفحة من النسخة الجديدة **لأعمدة الحكمة السبعة** قد كتبت في الألم والحرمان. والنتيجة آسرة وبالنسبة لكثيرين فنحن بإزاء واحد من الأعمال الرئيسية في الأدب الإنجليزي في القرن العشرين.

ويطلب لورانس عون ونصيحة كتاب مشهورين. ويصبح صديقاً لبرناردشو وأ. م. فورستر وتوماس هاردي وروبرت جريفز وديفيد جارنيت ... ويحتفظ معهم بمراسلات تستمر لزمن طويل؛ وفي غضون خمسة عشر عاماً، فإن عدة آلاف من الرسائل، المكتوبة بعناية، سوف تجعل منه واحداً من أعظم كُتّاب الرسائل الذين كتبوا بالإنجليزية. بل إنه، مع شارلوت شو، زوجة برنارد، ينكب على تحليل غير عادي للذات.

لكن الكاتب يصبح في الوقت نفسه الجندي
من الفئة الثانية روس ثم الطيار
شو

ليس العلاج النفسي عن طريق الكتابة كافياً. وعدم تكيف لورانس مع العالم يظل عقبة. عندئذ يقرر العمل على اختفاء الليوتنانت ـ كولونيل لورانس. وفي عام ١٩٢٢، مستخدماً صلاته، ينجح في التوصل إلى تجنيده كجندي بسيط في الطيران البريطاني تحت اسم روس، مبرراً ذلك برغبته في أن يكتب كتاباً سوف يجد موضوعه في السلاح الجوي الملكي. ومن الملاحظات التي سجلها، سوف يولد عمل نشر بعد موته كتبه في السنوات الأخيرة من حياته، هو **قالب المصهر**. لكن الصحافة تكشف هويته الجديدة وتثير ضجة ضخمة بحيث إن السلطات، المحرجة، تسرحه في يناير/ كانون الثاني ١٩٢٣.

عندئذ يندرج لورانس، تحت اسم روس أيضاً، في سلاح الدبابات، لكنه يجد نفسه هناك تعيساً بشكل بالغ. والحال أن أصدقاءه، وهم سياسيون وكتاب، يتدخلون: وبعد إبرازهم للفضيحة الرهيبة التي يمكن أن تترتب على انتحاره، ينجحون في التوصل إلى إعادة ادراجه في السلاح الجوي الملكي، تحت اسم شو، في أغسطس/ آب ١٩٢٥.

وهذه الحاجة إلى الاختزال، وهذا البحث عن موقـــع آمــن لا يمكن فيه أن يسقط سقوطاً أعمق، وهـــذا الالـــتزام بإعـــادة تعلـــم الخضوع، إنما تشهد كلها على ضغوط نفسية رهيبة. وعندما يتضـــح أن كل هذه التدابير غير كافية، يخالط أناساً عاديين، تحـــت ذرائـــع مختلفة، سعياً إلى جلد ذاته.

على أنه يجد وسط الجنود البسطاء تضامناً وحمايـــة أصبحـــا ضروريين بالنسبة له. وفي المقابل، يستخدم صلاته السياسية للعمـــل على تهذيب الانضباط العسكري. وهو يصف تجربته الجديدة بلغـــة مماثلة للغة التي استخدمها في وصف حياته في الصحراء: «هنـــا، كنت متروكاً لقواي الخاصة، ولم يكن هذا يسيراً: لقد تطلّـــبَ منـــي اكراه جسدي العاجز إلى ما فوق قوة تحمله تقريباً، سعياً إلى تحمـــل منافسة شبابي. ومن منظور الذكرى، سوف يظهر المركز [مركـــز تدريب الجنود] بالنسبة لي دافئاً؛ تجربتي الأخيرة، دون شك. فـــهناك على الأقل، كُتب لي أن أبقى حياً، حتى وإن لم يكن هذا تماماً مـــن دواعي فخري. مع أنني كنت أحياناً أضحك بينما كنت أتوجع بأقوى ما أستطيع في دفتر يومياتي. لقد وصلتُ هناك إلى أنني لن يحـــدث لي أبداً بعد الآن أن أخاف البشر. فهنا، تعلمت أن أصبح متضامنـــاً معهم. ليس لأننا جد متماثلين أو سوف نصبح متماثلين. لقد ولجـــت الأمل الكبير في مشاطرة ميولهم وطرائقهم وحياتهم: لكن طبيعتـــي

تتابع الأشياء في المرآة التي تميل إليها، وليس بنظرة مباشرة. ومن ثم فلن أكون أبداً سعيداً بالكامل، سعادة أولئك الناس الذين يجدون رحيق حياتهم في الهياج العميق لبعض الغدد المنوية. ويبدو أنني أستطيع الاقتراب منهم إلى أبعد حد عبر الإنابة، باستخدام نفوذي (الذي أحسنت شحذه التجربةُ والنجاحُ في الحرب وكديبلوماسي) لمساعدتهم على الاحتفاظ بسعادتهم الساذجة في مواجهة قادة الفرق».

وهذا التقهقر حيال الذات وهذا الانضباط (بكل معاني المصطلح) المفروضان هما أيضاً انبعاث ما استهواه دائماً: توبة العصر الوسيط وفاقة البدوي؛ طريقة لكي يحيا من جديد في التكنة وفي الحداثة أزمنةً أخرى وأمكنةً أخرى. وخلافاً لنماذجه، يرفض كل تجاوز سماوي ويقترب مسلكه من شكل معين من أشكال العدمية.

الجندي شو أسير دائم لأسطورة

الليوتنانت ـ كولونيل لورانس

لم يكن مقرراً أن تُنشر **أعمدة الحكمة السبعة** في حياته. ومن عام ١٩٢٢ إلى عام ١٩٢٥، يستغل لورانس وقت فراغه في

الإعداد لطبعة عن طريق الاشتراك، من مائتي نسخة، مخصصة للشهود وللأصدقاء. ولتسوية نفقاتها، يقبل ظهور طبعة مختصرة، **التمرد في الصحراء**، حيث يجري استبعاد الجزء الخاص بالاعتراف الشخصي. وأمام استعادة الشهرة التي عادت عليه بها هذه الطبعة، لا يشعر بالسخط حيال إرساله إلى الهند في يناير/ كانون الثاني ١٩٢٧.

وإذ يجري استخدامه في وظائف مكتبية، معزولاً في مواقع نائية، يبدأ في أن يستعيد هناك نوعاً من التوازن. وهو يضطلع بأعمال نقد أدبي إلى جانب ترجمة **الأوديسة** وأنطولوجيا شخصية للشعر الإنجليزي. لكن الصحافة تكتشف من جديد وجوده في الهند: ويجري اتهامه دائماً بأنه جاسوس ومثير انتفاضة من جانب قبائل أفغانية. وإذ تجد السلطات نفسها عاجزة عن مواجهة التكهنات التي أثارها ذلك الذي تسميه الصحف بـ«آخر والٍ لبريطانيا العظمى في الهند»، تقوم بترحيله على وجه السرعة إلى إنجلترا في يناير/ كانون الثاني ١٩٢٩.

وفي الأعوام التالية، يجري إلحاق شو بالقواعد البحرية للسلاح الجوي الملكي في إنجلترا ويخدم كميكانيكي للطائرات المائية. بل إنه يعمل في تجهيز زوارق سريعة ذات محركات لاستخدامها في

عمليات الإنقاذ في البحر. وهو يرتب بيتاً في الريف ويتحمس للسرعة على الدراجات النارية. وتتحسن حالته النفسية، لكن الأسطورة تطارده دائماً: إن الفرنسيين يرونه في جميع الانتفاضات المعادية للاستعمار في العالم الإسلامي: والسوفييت يذكرون اسمه في محاكمات موسكو، بوصفه منظم مؤامرات ضد ديكتاتورية البروليتاريا، وتركيا الكمالية تتهمه بتنظيم مؤامرة إسلامية..

وفي فبراير/ شباط ١٩٣٥، يترك السلاح الجوي الملكي، بعد انتهاء مدة عمله. وإذ يجد نفسه ملاحقاً دائماً من جانب الصحافة، يضطر إلى الاختباء في لندن. وأخيراً، يتوصل مع مديري الصحف إلى أن يتركوه في سلام. وهو يرفض العروض المختلفة المقدمة إليه لتولي مناصب مسئولية. فطموحاته الوحيدة تتصل بمجال الأدب. وفي ١٣ مايو/ آيار ١٩٣٥، خلال نزهة على الدراجة النارية، وحيال خطر صدم طفلين على دراجة، يلقي بنفسه خارج الطريق لتفاديهما ويسقط من على دراجته النارية التي كانت في أقصى سرعتها. وهو يموت بعد ذلك بستة أيام بسبب إصابات دماغية. ويتم تشييع جثمانه في ٢١ مايو/ آيار. وحَمَلَةُ النعش شهود لعهود مختلفة من حياته: ستورز ونيوكومب إلى جوار كيننجتون، عريف، جندي بسيط وأحد الجيران. وتشهد تشييع الجثمان شخصيات سياسية مثل ونستون تشرشل والليدي آستور وعسكريون

وكتاب. ويوجه الملك جورج الخامس رسالة إلى شقيقه الأصغر، أرنولد لورانس: «إن اسم أخيك سوف يحيا في التاريخ ويعترف الملك ممتناً بأهمية خدماته لبلاده ويأسف لمأساة نهاية كهذه لحياة كانت ما تزال ثرية بالوعود».

كل شيء كان يمكن أن يوحي بأن أسطورة لورانس محكوم عليها بالتلاشي، في عالم يتجه نحو حرب عالمية جديدة. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث

في حياة لورانس، كتب سيرته ثلاثة من كتاب السير. فأولهما، لويل توماس، قد اخترع الملك غير المتوج لبلاد العرب. وثانيهما، روبرت جريفز، وهو كاتب وشاعر شهير، قام في عام ١٩٢٧ بعمل صحافي مستعيداً بسرعة **أعمدة الحكمة السبعة**، المنشورة آنذاك في مائتي نسخة للمميزين، وقدم لورانس بوصفه عبقرياً. وثالثهما، ليدل هارت، وهو مُنَظِّر شهير للفن العسكري، اهتم في عام ١٩٣٤ بتجهيز نفسه بالوثائق حيال الشخصية التي يتحدث عنها وقارنها بمارلبورو ونابوليون.

وبين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٩، يكتشف الجمهور **أعمدة الحكمة السبعة** ــ التي يلقى نشرها نجاحاً كبيراً ــ، ومراسلات لورانس مع كاتبي سيرته وجزءاً من رسائله التي جمعها صديقه ديفيد جارنيت وعدداً معيناً من برقياته خلال زمن الحرب. وفي عام ١٩٥٥، يجري نشر **قالب المصهر**، ثم رسائل إلى أسرته. وهكذا يكفل الكاتب بقاء البطل بعد موته، في حين أن حياة الطيار شو تفتن جيلاً بأكمله من المثقفين المشهورين. وفي فرنسا، فإن كتاباً مثل مالرو أو سارتر يطرحون مسألة معنى حياة هذا الرجل جد الملغزة.

ومنذ ذلك الحين، تصبح السير والدراسات المكرسة للورانس جنساً أدبياً قائماً بذاته. ومنذ الخمسينيات، تصبح شخصية هذا الرجل محل تساؤل: لقد كان دجالاً وكثير من الأفعال التي يزعمها ليست غير اختلاقات. ويجري اكتشاف جوانب مزعجة في شخصيته، الجنسية المثلية المكبوتة أو غير المكبوتة، السادو-مازوخية. وإذا كانت فكرة الصليبي الأخير تنهار أمام التعقد المخيف لشخصية الرجل، فإن الهُوى التي يمكن رصدها فيها ما تزال مصدر فتنة كبرى: أليس رمزاً لعذابات القرن العشرين ؟

بل إن فيلم ديفيد لين، **لورانس العرب**، في عام ١٩٦٢، والذي يهب الأسطورة حياة ثانية باستخدامه الرائع للبيئة الطبيعية وأداء بيتر

أوتول العظيم، إنما يبرز الالتباسات التي نلحظها عند لورانس في ذلك العصر. إن التشويهات التاريخية عديدة والتسلسل الزمني مقلوب، وبعض الشخصيات يجري الخلط بينها وشخصيات أخرى، وليس هناك لا قبل ولا بعد، والأهم من ذلك أن الفيلم يجعل من الرجل شخصاً يتلذذ بالعنف ويحب القتل، وهو ما لم يكن قط، فيما يبدو، واقع الحال. وهذا العمل، الذي ميز تاريخ السينما، يعمم بشكل نهائي الصورة المزعجة لرجل الصحراء على حساب جوانب أخرى في حياته.

وكان لابد من انتظار عام ١٩٦٨ وفتح الأرشيفات البريطانية حول هذه الفترة لتكوين رؤية أخرى عن الشخصية. وتدريجياً، يكتشف المؤرخون أن الرجل، في كتاباته العلنية، كان بالأحرى مخلصاً للحقيقة التاريخية وأن الكثير من ألغاز مسيرته إنما ينبع من واجب التحفظ الذي فرضه على نفسه. وفي عام ١٩٧٦، ينشر محلل نفسي مثل ادوارد ماك أول تحقيق سيكولوجي جاد عن الرجل. واعتباراً من الثمانينيات، فإن الكاتب هو الذي يأتي في الصدارة مع السماح بالاطلاع على رسائله الأكثر حميمية إلى شارلوت شو.

ومن الواضح أن اسمه قد بقي لأن مغامرته كانت بالدرجة الأولى مغامرة شخصية، بما في ذلك في طموحه الجنوني إلى خلق

أمة جديدة. وفي عصر الجماهير والمذابح الجماعية، جسّد عودة مفارقةً إلى العصر الوسيط الأسطوري. وفي وجه المثقفين الميالين إلى الحديث عن المطلق وإن كانوا مشغولين بالأباطيل المادية التافهة، طرح تخيله السافر عن كل شيء في السنوات الأخيرة من حياته. وفي وجه غرب مغرم بالاستشراق، كان أول من يطوح فكرة الذنب. وفي حين انه كان الأبعد في البحث عن الآخر في أصالةٍ وغرابةٍ جذريتين، فقد أكد أن الفصل الأوروبي في تاريخ الشرق بسبيله إلى الانتهاء. ولأن لورانس كان بالدرجة الأولى إنساناً وحيداً فإن أسطورته اليوم تفتن ملايين الناس.

[٣]

مكانة لويس ماسينيون
في سياسة فرنسا حيال العالم الإسلامي
خلال عهد الجمهورية الثالثة

باستيلاء فرنسا على الجزائر، وجدت نفسها مسيطرة على جماعة سكانية مسلمة ضخمة بينما واصلت علاوة على ذلك سياسة نفوذ قديمة العمر في الشطر الآسيوي من الدولة العثمانية وفي مصر. وخلال القرن التاسع عشر، سوف نجد أن واضعي السياسة الفرنسية في هذه المناطق كانوا من حيث الجوهر رجالاً من الساحة، فهم مدراء وعسكريون ومبشرون وديبلوماسيون، بينما كانوا في المتروبول سياسيين، وكتاباً اجتماعيين. وحتى العقود الأخيرة للقرن، كان الجامعيون بالمعنى الأصيل للمصطلح غائبين عن النقاش حول التدابير الواجب اتخاذها في أرض الإسلام.

والسبب الرئيسي لهذا الغياب هو ضعف الجامعة الفرنسية خلال الشطر الأكبر من القرن التاسع عشر. فبالرغم من الجهود التي كانت قد بدأت في عهدي عودة الملكية وملكية يوليو/ تموز، كان الشطر الرئيسي من الفكر الفرنسي ما يزال يُنْتَجُ في أماكن

أخرى غير مجال الجامعة. والحال أن الإمبراطورية الثانية قد استوعبت هذا الواقع وردت عليه بإنشاء المدرسة العملية للدراسات العليا. على أن إنشاء جامعة حقيقية هو من فعل الجمهورية الثالثة التي تسنى لها، بفضل عمل دينامي وفي إطار المواجهة مع ألمانيا، اختراع نموذج جديد للجامعة سرعان ما أصبح عنصراً من عناصر تكوين النظام الحاكم إلى الدرجة التي أمكن عندها الحديث عن «جمهورية الأساتذة».

ويمكن القول إن لويس ماسينيون ولد في عام ١٨٨٣، في اللحظة التي انخرطت فيها الجمهورية في هذا المشروع الضخم وإنه يبلغ سن الرشد حين يبدأ هذا المشروع في إتيان ثماره.

وفي مجال الدراسات الإسلامية، اتجهت الجمهورية إلى إحياء وتجديد مدرسة اللغات الشرقية الحية التي اتخذت مقراً لها في شارع ليل في عام ١٨٧٣ بينما تلاشت مدرسة اللغات الحديثة في عام ١٨٩٣. والحال ان لويس ماسينيون سوف يكون تلميذاً في هذه المنشأة المجدَّدة.

وفي تلك الأثناء، تتساءل الجمهورية عن تطورات العالم الإسلامي، وهو مصطلح يظهر نحو عام ١٨٨٠ ويصبح شائع الاستعمال في أواخر القرن. ففي أعقاب مؤتمر برلين المعقود في عام ١٨٧٨، ظهر تياران سياسيان في الدولة العثمانية: نوع من

نزعة استقلالية للولايات العربية غير محددة تحديداً جيداً، وما يسمى بالجامعة الإسلامية، وهي مصطلح يدخل في الاستعمال نحو عام ١٨٨١. والحال أن السلطان عبد الحميد يجعل من الجامعة الإسلامية الأداة الجديدة لتأكيد تلاحم الدولة ويعتمد بشكل خاص على عرب الدولة من باب المعارضة للقوى الأكثر تعلمناً والتي سوف تسمى بحركة تركيا الفتاة التي يتركز نشاطها التجنيدي بشكل خاص على الأتراك. ولا تمثل الجامعة الإسلامية هجراً للإصلاحات العثمانية، فهي تهدف بالأحرى إلى أسلمتها بحيث يتسنى تحقيق قبول أوسع لها. وهي [الجامعة الإسلامية] تستند إلى فكرة رئيسية كبرى: وحدة الإسلام حول سلطان ــ خليفة القسطنطينية، وهي وحدة تتجاوز الدولة العثمانية وحدها لتشمل كافة المسلمين، أكانوا ما يزالون مستقلين أم أصبحوا خاضعين للسيطرة الاستعمارية. والحال أن الواقع الجديد المتمثل في إنشاء طرق مواصلات حديثة، والذي سمح للمسلمين المتباعدين بعضهم عن البعض الآخر بعدة آلاف من الكيلومترات بأن يتواصلوا فيما بينهم، هو الذي يفسر ظهور مفهوم العالم الإسلامي والذي أصبح وجوده الملموس ملحوظاً عبر جمع الأموال في كل مكان يوجد فيه مسلمون لإنشاء سكة حديد الحجاز، الهادفة من الناحية الرسمية إلى تأمين الحج ومن الناحية شبه الرسمية إلى استعادة السلطة العثمانية في شبه الجزيرة العربية.

ومن الناحية الاجتماعية، ترتكز الجامعة الإسلامية على الطرق الصوفية الكبرى التي تصبح من ثم مصدر انزعاج كبير بالنسبة للسلطات الاستعمارية التي تواجهها في كل مكان: إن رسل يلدز (قصر السلطان عبد الحميد) إنما يلعبون، في الاستيهامات الكولونيالية، عين الدور الذي سوف يلعبه فيما بعد رسل الأممية [الشيوعية]. ومن ثم فإن تعلق الجامعة الإسلامية هذا بالصيغ التقليدية لممارسة الإسلام لابد له من أن يحول دون أي خلط مع اتجاه الإصلاح الإسلامي (أو السلفية) الذي يدعو هو أيضاً إلى وحدة الإسلام. لكننا هنا [مع اتجاه الإصلاح الإسلامي] بازاء تجديد للإسلام عن طريق عودة إلى صيغه الأصيلة المميزة للأزمنة الأولى: فهذا النوع من البروتستانتية الإسلامية (والتشبيه يقوم به المعنيون أنفسهم) مناوئ بقوة لممارسات الطرق الصوفية المتهمة بالمسئولية عن تأخر الإسلام. وفي الأراضي الواقعة تحت سلطة السلطان، تجري مراقبة ومحاصرة السلفية؛ ومركزها الحقيقي هو مصر تحت الاحتلال البريطاني مع محمد عبده (الذي يموت في عام ١٩٠٥) وتلميذه رشيد رضا (الذي سوف يموت في عام ١٩٣٥). وفي اقاماته الأولى في الشرق، يستوعب لويس ماسينيون خطورة شأن الطرق الصوفية وعلاقاتها الوثيقة مع طوائف التجار والحرفيين، لكن تردداته، في مصر كما في شرقي البحر المتوسط، سوف تكون خاصة على الأوساط السلفية (آل الألوسي في بغداد ورشيد رضا وخاصة شقيقه في مصر).

● سياسة فرنسا حيال العالم الإسلامي

أدت سياسة تحقيق الاستقرار الحميدية في ثمانينيات القرن التاسع عشر، بصورة مؤقتة، إلى إنهاء الغليان السياسي والديني في المشرق العربي في حين أن الصراعات على النفوذ والتي خاضتها الدول الأوروبية قد تم احتواؤها من جانب السلطات العثمانية التي لعبت على التنافسات بهدف تحييدها. بيد أنه اعتباراً من ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧، مع الحرب اليونانية التركية والأحداث الأرمنية، عادت الجامعة الإسلامية إلى جدول أعمال الشواغل الاستعمارية وذلك بقدر ما أن تحالف العثمانيين مع ألمانيا الإمبراطورية قد شكل بالنسبة لفرنسا وإنجلترا «آلة حرب» جرمانية تهدد بخلق متاعب في ممتلكاتهما. وبينما كانت فرنسا بسبيلها إلى تحقيق فتح الصحراء والانخراط في سياسة هجومية حيال المغرب، فإن الأوساط الحاكمة للجمهورية الثالثة قد أصابها الانزعاج من التحولات الجارية في العالم الإسلامي.

والحال أن جابرييل هانوتو، وزير الشئون الخارجية السابق، يدعو، في سلسلة من المقالات المنشورة في مارس/ آذار ١٩٠٠، إلى إجراء استقصاء شامل حول الإسلام :

«حسناً، مادمنا قد قبلنا تحمل هذه المسئولية وحصلنا على هـذه السلطة، فلنفكر تفكيراً حكيماً في وسائل ممارستها. فلنسأل العـارفين ولنسأل من عاينو الأمور؛ ولنطلب منهم بحكم ما يتميزون به مـن كفاءة أن يحرروا نوعاً من كتاب نموذجي ومـن كتـاب إرشـادي سياسي يوجز مبادئ علاقاتنا مع العالم الإسلامي. إن كتيبة بأكملـها من المنظرين ومن الأشخاص العمليين ـ الموظفيـن والضبـاط والأساتذة والمهندسين والزراعيين والمستوطنين ـ كـانت أو مـا تزال على اتصال مستمر مع المسلم وتجعل من حياته ومن شـواغله موضوع دراساتها. ومن جهة أخرى، بوسع المسلمين هـم أنفسـهم إفادتنا. ولو سألناهم فسوف يجيبون. ويمكن إجـراء اسـتقصاءات حول كل شيء، بما في ذلك الموضوعات التي يبدو أنـها الأكـثر وضوحاً. وهي من أكثر الموضوعات التباساً. لماذا لا نلجـأ إلـى الوسيلة الوحيدة التي تسمح بتسليط ضوء ساطع عليها ونشـر هـذا الضوء، في الوقت نفسه، حتى يشمل جميع أولئك الذين لا يرجـون غير الإفادة من أشعته ؟ وعلى أثر هذا الاستعلام الواسـع سـوف يجري تحرير تعليمات محددة من شأنها، حال توجيهها إلـى كافـة موظفينا وإبلاغها إلى جميع مستوطنينا ونشرها في كل مدارسـنا، محو الكثير من الأخطاء والأساطير وتذليل الكثير من الصعوبـات وتدارك الكثير من السقطات التي غالباً ما يصعب علاجها. إن نوعاً

من «كتاب مصاحب» عن مستعمرات فرنسا سوف يكون، بالنسبة للجميع، صنيعاً عظيماً وسوف يسمح لنا بأن نحيا، ربما لمدة نصف قرن، على خبرة الكثيرين من الفرنسيين الصالحين والمستعربين الجيدين الذين، في تشتتهم وغياب الارتباط فيما بينهم، غالباً ما يذرفون، في الوحدة، دموعاً مرة على الأخطاء التي غالباً ما يكون بوسع كلمة واحدة السماح بتجنبها».

ومن هذا التيار الفكري تنبثق فكرة محددة، هي فكرة سوسيولوجيا العالم الإسلامي، التي تتجسد في شخصية ألفرد لوشاتلييه، وهو عسكري صار جامعياً، أنشأ الكرسي الذي يحمل الاسم نفسه وأنشأ في عام ١٩٠٧ مجلة **ريفي دي موند ميزيلما**. ولا ينفصل عمله عن التغلغل الفرنسي في المغرب (الحماية المغربية هي التي سوف تُموّل كرسيه). وهناك جامعي آخر منخرط في هذا العمل الخاص بجمع المعلومات، هو أوجستان برنار، أستاذ الجغرافيا في السوربون. وهاتان الشخصيتان هما «المعلمان»، بالمعنى الجامعي للمصطلح، للشاب لويس ماسينيون. وفي المجال الكولونيالي بالمعنى الأصيل للمصطلح، يعد ليوتي قريباً من دائرتهما ومن شواغلهما. والحال أن بعض الأفكار الرئيسية تفرض نفسها منذ ما قبل ١٩١٤: إن الأسلوب الذي تم به فتح الجزائر كان خطأً باهظ التكلفة يتوجب تفادي تكراره؛ إن

المجهود الحربي كان مؤلماً بشكل خاص وذلك بسبب المقاومات المحلية ثم إن استيعاب المديريات الجزائرية في المتروبول يطرح المشكلة غير القابلة للحل من الناحية العملية والخاصة بدمج عدة ملايين من المسلمين في الأمة الفرنسية وفي الجمهورية؛ إن هناك ضرورة لصيغة أكثر رهافة للفتوحات وللسلطات، ومن ثم أكثر احتراماً للسكان المسلمين؛ إن الحماية التونسية لعام ١٨٨١ تبين الطريق الذي يجب إتباعه و«سياسة المراعاة» هذه هي السياسة الرئيسية التي يتوجب تطبيقها في المغرب. وفي شرقي البحر المتوسط، يتعين على فرنسا الحفاظ على سياستها الخاصة بحماية الأقليات المسيحية التي تصبح فرانكوفونية بشكل متزايد باستمرار وتوسيع هذه السياسة بحيث تشمل أقليات مسلمة كالعلويين وذلك مع السعي في الوقت نفسه إلى كسب تصالح الأوساط المسلمة السنية التي تؤلف الغالبية.

وهذه التأملات التي تجمع بين الدراسة السوسيولوجية والفعل السياسي في الساحة تأخذ بعين الاعتبار العالم الإسلامي باعتباره شيئاً عالمياً وتجد ترجمة لها في عام ١٩١١ في إنشاء اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية .C.I.A.M والتي تتألف من ديبلوماسيين وعسكريين وإداريين وجامعيين. وهي «مكلفة بتحديد مناهج سياستنا الإسلامية والسعي إلى حل للشئون

المشتركة لدى مختلف الإدارات المعنيـــة فيمـــا يخـــص المســـائل الإسلامية».

وبناء على ذلك، تحـــرر [اللجنـــة] طلبـــات تعرضـــها علـــى الحكومة، وهي طلبات تترتب عليها نتائج بوجه عام.

وبشكل موازٍ للجنة، يجري استعراض واسع لصحافـــة العـــالم الإسلامي في وزارة الشئون الخارجية وفـــي وزارة المســـتعمرات وغالباً ما يخدم هذا الاستعراض ملفات تحضيرية لأعمال اللجنة.

واعتباراً من ثورة تركيا الفتاة فـــي ١٩٠٨ ــ ١٩٠٩، يدخـــل الشرق الأدنى من جديد في فترة غليان سياسي بينما تهتـــم الـــدول [العظمـــى] بتعزيز مواقعها هناك. وتتسارع الأحداث فـــي أعـــوام ١٩١١ ــ ١٩١٣ مع الحرب الإيطالية ــ العثمانية، ثم مع الحربيـــن البلقانيتين الأولى والثانيـــة. ثم إن خلع عبد الحميد في عـــام ١٩٠٩ قد زاد من سخط العرب. لكن صياغة ما يميل إلى أن يكون نزعـــة استقلالية عربية تعد مسألة بالغة التشـــوش. إن أطروحـــات دينيـــة بشكل محدد كمنازعة شرعية الخلافة العثمانية قياساً إلـــى خلافـــة عربية أكثر شرعية إنما تنبثق من الوسط السلفي بشكل محدد والذي أعرب عنها في البداية لكي يكسب إلى صفها مجمل الساخطيـــن؛ كما تجري المطالبة بمساواة اللغة العربية مع اللغة التركيـــة كلغـــة

رسمية للدولة، ويجري اتهام «النير العثماني» بأنه مسئول عن انحطاط الولايات العربية؛ وتجري المطالبة بلا مركزية حقيقية للسلطات الإدارية والسياسية.

وخلال تلك الفترة، لا يشارك ماسينيون الشاب في السياسة [الفرنسية] حيال العالم الإسلامي لكنه مدفوع بشكل طبيعي تماماً إلى تقديم شهادات إلى أساتذته مثل برنار ولوشاتلييه وإلى تحرير مقالات لمجلة **ريفي دي موند ميزيليما**. وفي مصر، يتردد على الأوساط السلفية التي تنشط نشاطاً سياسياً ضخماً (إن رشيد رضا هو أحد محركي حزب اللامركزية العثمانية). ومن المرجح للغاية أنه قد تأثر بقوة التيارات الحداثية المنبثقة من السلفية والتي تسعى إلى تطوير الشرع الإسلامي في اتجاه صيغ أكثر انفتاحاً، خاصة فيما يتعلق بحالة المرأة. لكن المرء لا يفلت من وسطه ومن عصره. والحال أن مجرد وجود لويس ماسينيون في هذه الجامعة الخاصة التي هي جامعة القاهرة الأولى إنما يبدو بوصفه نقطة كسبتها فرنسا في صراعها ضد إنجلترا من أجل النفوذ لدى النخب المصرية.

وهكذا ففي ١٠ إبريل/ نيسان ١٩١٣، تستمع اللجنة الوزارية المشتركة إلى تقرير من القومندان سانت ايكسوبيري الذي كان قد

قام مؤخراً ببعثة في بلاد الشام وفي مصر. وهو يستحضر مناخ الليبرالية هذا الذي يتوجب تشجيعه:

«من الواضح أن هناك تراجعاً للإسلام أمام زحف الحضارة الأوروبية. وسعياً إلى تدارك هذا الوضع، فكر رجال مصر الفتاة في تبسيط شريعة محمد وذلك بفصل القانون المدني عن الشريعة. أمّا رجال تركيا الفتاة الذين قطعوا شوطاً أبعد فقد سعوا إلى تحرير حكومتهم من التأثير القرآني. وقد أثاروا عندئذ ضدهم مشاعر المؤمنين العميقة. واستبعدهم كمال باشا من السلطة. لكنهم تمكنوا عبر حركة عنيفة من استعادة السلطة التي يحتفظون بها من جديد في الوقت الراهن. وفي سياق هذه الأحداث ذات الطابع الداخلي، كفت القسطنطينية عن أن تكون المركز الوحيد للإسلام؛ وظهر اتجاه نحو خلق مراكز إسلامية في مختلف البلدان المسلمة. وهذا واقع لافت بالنسبة للحكومات الأوروبية التي تملك أراضي تعد غالبية السكان فيها مسلمة. وسوف يتعين استغلال الظرف للتأثير على الإسلام في هذه المناطق بإدخال تعديل طفيف على طابعه العام، سعياً إلى خلق إسلام محلي خاص بكل بلد من البلدان المعنية. ووصولاً إلى تحقيق هذه الغاية، سوف يكون من الأهمية بمكان إنشاء مراكز دراسات حيث يكون بوسع المسلم، دون أن يغادر البلد الذي يقيم فيه، أن يجد إلى حد ما التعليم الذي يجب اكتسابه وحرية نسبية مقيدة بشكل واضح في المقابل، عبر المراقبة

غير السافرة والتي تستوجبها يقظة الدول الأوروبية، ويتعين على التعليم أن يتجاوز إلى حد ما البرنامج الإسلامي الخالص الذي تقتصر عليه الجامعات المحمدية العتيقة. إلاّ أنه سيكون من الضروري ألاّ يكون تدخل السلطة سافراً جداً؛ إذ لا يمكن ممارستها إلاّ عبر الأئمة الذين سيتوجب توصيل الاتجاهات التي يجب تقديمها إلى أسماعهم؛ ويجب تعليم رجال أذكياء يتولون، حالما يصبحون أساتذة، تدريس نظريات أكثر ليبرالية من تلك الرائجة في المؤسسات الإسلامية، بحيث تبدو تلك النظريات وكأنها نابعة منهم هم أنفسهم.

«ويتعين، بشكل خاص، أن تكون فرنسا أكثر تسامحاً؛ ذلك أن طريقتنا في الحكم لها سمعة سيئة لدى المسلمين. وفي بلاد الشام، سوف نجد أن مشايخ جد أذكياء، نجحوا عبر عدد من الرسل في تمحيص المزاعم غير المواتية فيما يتعلق بنا، قد تمكنوا من التعرف على وقائع مؤسفة من المفترض أنها حدثت عندنا. ويحكم المحمديون حكماً قاسياً على نظام حكم الإدارة الاستعمارية. وهم يأسفون لأنه في الجزائر بوجه خاص يجري منع الكثيرين من الراغبين في الحج من الذهاب إلى مكة. وفي هذا السياق، نجد أن الإنجليز قد أقاموا، في مصر، نظاماً يستحق الالتفاف.

«إنهم يطلبون من الراغبين في الحج دفع تأمين احتياطي قدره خمسة جنيهات. وتتولى جمعيات تسليف هذا المبلغ للمعنيين لكنها

تجري قرعة بين الطلبات؛ ومن يحصل على السلفة وتوجد وثـــائق عنه لدى هذه الجمعيات إنما يتم كسبه إلى النفوذ الإنجليزي بحكـــم السبب المباشر المتمثل في المراعاة التي تعود عليه بحكم أنه كـــان في مكة. والحال أن سياسة الإنجليز المتساهلة قد أملتها عليهم، فـــي الحقيقة، رغبتهم في كسب تصالح مسلمي الهند، لكنهم سعوا، فـــي هذه الروح، إلى ابتكارات من المفيد التعرف عليها.

«فقد حاولوا أن ينشئوا في الأزهر تعليماً أكثر ليبراليـــة مـــن تعليم الجامعة الإسلامية. وقد فشلوا في ذلك أمام اعتراض المسلمين المشايخ: لكنهم قاموا عندئذ بإنشاء جامعة مصرية دعوا إليها أســاتذة أكفاء، من بينهم ماسينيون. وهكذا حصل الإنجلـــيز علـــى بعـــض النتائج.

«ولكن إذا كان المؤمنون المشايخ مازالوا يضعون العراقيل في وجه مشاريعهم، فإنهم قد نجحوا في إنشاء مدرسة للقضـــاة؛ ولكـــي يجتذبوا الطلاب إليها، فإنهم يقدمون إليهم دون ضجيج منحاً تســمح لهم بارتداء ملابس أنيقة. وعلاوة على ذلك، فإنـــهم يقدمـــون لـــهم أمارات اهتمام معينة. وقد حدثت احتجاجات وهجر الطلاب جامعـــة الأزهر لصالح مدرسة القضاة. وعندئذ قررت إنجلترا، لكي تضـــع حداً لذلك، إجراء اختيار بين المرشـــحين الراغبيـــن فـــي دخـــول المدرسة.

«لكن هذا الاختيار عينه إنما يعطي هيبة لأولئك الذيـــن يتـــم قبولهم».

• الحرب العالمية الأولى

مع الحرب العظمى، سوف يطرأ تغير على وضع لويس ماسينيون ــ فهو في البداية يعمل في الخدمة الصحافية لوزارة الشئون الخارجية، ثم يجري إيفاده إلى الدردنيل كمترجم. وفي مارس/ آذار ١٩١٧ يتم إلحاقه ببعثة بيكو. وبعيداً عن أن يكون عميلاً للاستخبارات، فإنه يشارك بنشاط في العمل السياسي المتمثل في التنسيق بين الفرنسيين والبريطانيين والأشراف في إطار الثورة العربية. والحال أن المصادر المتاحة حالياً لا تسمح بتحديد جيد لما كان عليه عمل ماسينيون في بعثة بيكو. وبالمقابل، فمن الواضح تماماً أنه يتبنى بالكامل المنظورات التي هي منظورات رئيسه ومنظورات نظيره البريطاني، السير مارك سايكس: وهي تتعلق بتوفيق طموحات فرنسا وإنجلترا مع بعث القوميات المحررة من الدولة العثمانية. وهذه القوميات، العربية واليهودية والكردية والأرمنية، سوف تتطور تحت الوصاية الخبيرة من جانب فرنسا وبريطانيا العظمى قبل أن ترقى إلى استقلال سافر وتام.

وعن سنوات الحرب [١٩١٤ ــ ١٩١٨]، لا نحوز، خارج المراسلات، غير تقرير، مؤرخ في ٢٦ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٧، حول الفيلق العربي الذين كان بسبيله إلى التكون في مصر

تحت قيادة فرنسية وبريطانية. ويهتم ماسينيون على نحـــو خـــاص بمكانـــة المسيحيين [في الفيلق] (٦٤ من ٤٢٠ شخصاً) الذين كـانوا جد متسرعين إلى إعلان «نزعتهم الانفصاليـــة القديمـــة لجماعـــة مضطَهدة»، كما يهتم بالمشاعر الجماعية التي تشكل مصدر إلـــهام لهذه الوحدة. وهو يرصد الروح العشائرية القويـــة، خاصـــة بيـــن العناصر ذات الأصل البدوي كما يرصد النزعة القومية العربية:

«الشعور الجماعي الثاني، الحائز لإعمـــال فكـــر أكـــثر وذو الأصل الفكري والتربوي، وإن كان مخلصاً ومثالياً، هـــو الشـــعور القومي العربي. وهو هنا هاشمي من الناحية السياسية. وهو يُحَيـــي بشكل سافر في الملك اللواء الحالي للأمة العربية. لا أكثر ولا أقـل. والمسألة ليست مسألة إخلاص شرعي لشخصٍ حفيـــدٍ مـــن أحفـــاد النبي. ولا مسألة إخلاص إسلامي لحامي الكعبة. بل هـــي مســـألة إنشاء وطن عربي تحت هذا اللواء، أمة كالأمم المتمدنة الأخرى في العالم، خارج كل طائفة وكل عشيرة، وذلك بالاعتماد علـــى جميـــع أولئك الذين يشتركون في وراثة الحضارة العربية، لأنهم يتكلمـــون اللغة العربية. فهل يعد هذا الأساس المثالي كافياً لكـــي «يتعـــايش» المسلمون مع المسيحيين واليهود الذين قامت كـــل عصـــور تلـــك الحضارة باضطهاد أسلافهم ؟ إن الاحتمالات كلها واردة. والحـــال أن حالات فرار حدثت مؤخراً من جانب مسـيحيين ســوريين بـــل

ولبنانيين انتهوا إلى الانضمام إلى الأركان العامة للشريف فيصل في العقبة إنما تثبت أن القيمة والجاذبية الفكرية لـ«أمة عربية» يمكن أن تؤثر على المسيحيين العرب».

وخارج هذا النص، عثر جيرار خوري على بعض المذكرات الوثائقية بالنسبة لأعوام الحرب هذه. والوثيقة المهمة الأولى عبارة عن تقرير إلى البعثة بتاريخ ١٥ أبريل/ نيسان ١٩١٩ حول إقامة في دمشق في يناير/ كانون الثاني ــ فبراير/ شباط ١٩١٩. وهو يتعلق بالأوساط الإسلامية في دمشق ويجري فيه وصف مختلف ظلال الرأي العام في مستهل فترة «المملكة العربية». وأنا أستشهد منه بفقرة دالة بشكل خاص على أفكار ماسينيون في تلك الفترة :

الوسط العربي الشاب والصحافة

«إن صحافة دمشق، المحررة غالباً بموهبة، ودائماً بحدة، هي عمل فريق من الشبان الذين من الواضح أنهم قليلو التعاطف مع فرنسا التي يرتابون فيها كغازية لكنهم متحمسون دائماً ومخلصون أحياناً في الوطنية التي يعلنونها. وبعد سقوط بغداد والقدس وبيروت تحت نفوذ أوروبا المباشر، أصبحت دمشق مهددة، وهي الساحة الأخيرة للاستقلال العربي المطلق. ثم إن الحب الذي يقول هؤلاء

الشبان العرب إنهم يغذونه تجاه الحضارة الغربية إنما تخفـف منـه حساسية عصبية جد قوية، ومحسوسة أيضاً، فـي العمـق، حيـال تعديات الصهيونيين في فلسطين وتعديات الإنجليز في شرق الأردن وفي بلاد الرافدين، كما حيال نـزول الفرنسـيين علـى السـاحل السوري. ولكن، بمساعدة الأموال الإنجليزية، ليس هناك سوى هـذا النوع الأخير من الشكايات الذي تعبر عنه صحافـة دمشـق شـأن الأوروبيين ونصل المقـالات الرئيسـية موجـه باسـتمرار ضـد الفرنسيين. ومن جهة أخرى، فإن بعـض الشـبان، إذ يتذكـرون المؤتمر العربي الذي عقده ممثلو الجيل السابق في باريس في عـام ١٩١٣، يعبرون عن ذلك صراحة مع الفرنسيين. وبالإمكان الـرد عليهم بإفهامهم أنهم لا يمسكون بميزان عادل: بين إنجلـترا، التـي استثمرت الكثير من الرجال والمال لأجل قضيتهم لكنها تفكك عـن دراية بعض البلدان العربية فتناصر الصهيونية في القدس ومعـاداة الصهيونية في حيفا، والاسـتقلال العربـي فـي حلـب ودمشـق والاحتلال المباشر، بل والوحشي، في السلط وفـي بغـداد؛ وبيـن فرنسا الراغبة في أن تتشكل الأمة العربية إلى حد ما، مع احـترام تنوع عناصرها التكوينية نفسه من غير انتهاك لتنوع أعضاء هـذا الجسد الكبير الذي ما يزال دون حياة والتي تعرف أنها هي وحدهـا القادرة على إقناع الأقليات المسيحية بل والدروز بالدخول بـإخلاص

ودون تردد في الوحدة الاجتماعية العربية لأنها ضامنـــة للبعـض حيال الآخرين. في حين أن حكومة الهند [الإنجليزيــة] تتفنن فـــي إثارة الوهابيين ضد الحجاز وتمنع المتطوعين البغداديين في الجيـش العربي، المسرحين في دمشق، من العودة إلى بلادهم حيث يمكنـــهم القيام بالدعاية العربية، لكن الصحافة المحلية لا تستطيع العيش دون أن يصل إليها الدعم المالي والتغلغل الاقتصادي الأنجلو ـ مصـري لكي يملي عليها توجهاتها».

ومن المؤكد أنه ضمن هذا التفكير يشترك ماسينيون مـــع بـن غابريت (الذي يطور أفكاراً مماثلة)، تحت قيادة فيليب بيرتلو، فـــي المفاوضــات الثانية بين فرنسا وفيصل في خريف عـــام ١٩١٩ والتي تفضـــي إلى الاتفاق المرحلي في ٦ ينــاير/ كــانون الثــاني ١٩٢٠. ولسوء الحظ فإننا لا نحوز محضر هذه المحادثات. وكمـــا أوضح ذلك جيرار خوري، فإن روبير دو كيه هـــو الــذي تولـــى تخريب هذه السياسة، مدعوماً، والحق يقال، بمماطلات فيصل.

• العشرينيات

في يونيو/ حزيران ١٩١٩، يتوصل ألفرد لوشاتلييه الذي تتدهور حالته الصحية إلى أن يمارس ماسينيون النيابة عنه في دروسه. وسوف يستمر هذا الوضع حتى عام ١٩٢٤. وبشكل موازٍ، يجري تكليف ماسينيون ببعثة وزارة الشئون الخارجية الخاصة بالشئون السورية (باريس، نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٩ ـ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٠؛ سوريا، نوفمبر/ تشرين الثاني ـ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠) وباقامتيه في المغرب حول تنظيم الطوائف الحرفية المسلمة (بداية ١٩٢٣ وبداية ١٩٢٤).

وانتخابه للكوليج دو فرانس يتم بدعم من السلطات كما توضح ذلك رسالتان تشيران إلى موافقة الحكومة العامة للجزائر والحماية المغربية اللتين يشارك كل منهما بالنصف في تمويل الكرسي (مارس/ آذار ١٩٢٦).

أما البعثة إلى المشرق من ٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٠ إلى ٦ يناير/ كانون الثاني ١٩٢١ فهي تتصل بالسياسة التي يجب اتباعها في هذه المناطق بعد سقوط فيصل وتزايد قوة الحركة الكمالية، حيث يعلق الساخطون السوريون الآن آمالهم على الكماليين.

وفيما يتعلق بلبنان الأكبر، يفصح ماسينيون عن تشخيص متشائم:

«لبنان الأكبر. إن تحقيق هذا الحلم، العزيز على الموارنة، إنما يهدد بخرابهم وقد أزاحت الحرب والأوبئة والهجرة الجانب الأكبر منهم. وسرعان ما سوف يبين التعداد الجاري الآن ما إذا كان من الضروري إلغاء ضم طرابلس (وربما جزء من [وادي] البقاع) لتجنب سقوط مسيحيي لبنان تحت نير غالبية مسلمة خالصة (أو نير الائتلاف مع الأرثوذكس)».

وهو يدافع عن سياسة ثقافية متعقلة تحترم عروبة سوريا، وعن انسحاب فرنسي من قيليقيا مع حماية الأرمن وخروجهم في نهاية المطاف وعن حكم ذاتي لأكراد الأناضول (وليس دولة). ويحرر عدداً من المذكرات عن بعض الشخصيات السورية. وينتقد التنظيم الإداري للانتداب.

وحتى عام ١٩٢٧، يعتبر عمل ماسينيون السياسي أكثر انفتاحاً ويتواصل عبر معالجته للأحداث الجارية في مجموعة متنوعة من المقالات الاستعراضية وفي أعداد مجلة **أنوار دي موند ميزيلما**. وفي عمله **مدخل إلى دراسة المطالب الإسلامية**، في عام ١٩٢٠، يشجب الجامعة الإسلامية: «إن هذه الخرافة الغريبة هي فانتازيا

روائية، جرى تعميمها في الغرب منذ أواخر القرن الثامن عشر من جانب كتابات كتّاب مختلفين». وهو ينتقد بالمثل فكرة البلشفية الإسلامية ورهاب الأجانب الإسلامي ويؤيد المطالب الإسلامية القائمة على المساواة المدنية: «فليُعامَل المسلم، دون أن يتخلى عن أحواله الشخصية والعائلية (تعدد الزوجات، المواريث، العقود)، كمواطن على قدم المساواة مع غير المسلمين من جانب جميع الدول: حتى يتوصل هو الآخر تدريجياً إلى تلك المساواة المدنية التي يتوصل الإسرائيليون أخيراً إلى نيلها في مجمل الكرة الأرضية». وهو يرحب بإعادة تنظيم الإسلام التي «تتم وتتسع بفضل الكتاب المسمين بالسلفية».

وهو يوضح طموحه الكبير:

«لقد حانت اللحظة، في فرنسا خاصة، لقطع شوط أبعد. إن سياسة إسلامية مثمرة حقاً يجب أن تصمم على أن ترتأي في التو والحال تبنياً قريباً في العالم الحديث لأشكال نوعية للمجتمع الإسلامي، فهو لا يريد أن يموت، وأن تدرس إلى أية درجة يمكن للنظام الاجتماعي الغربي الارتباط بالمسلمين في الدفاع الاجتماعي عن ثقافتهم التقليدية (بدلاً من دفعهم إلى الارتماء في أحضان البلاشفة) وعن أساس حياتهم المشتركة وعن تراثهم كمؤمنين. إن

فرنسا، التي كانت الأولى في منح حق المواطنة لإسرائيل، يتوجب عليها اتخاذ المبادرة نفسها بالنسبة للإسلام، إذ تحين اللحظة لذلك».

والنص الثاني الذي يعالج فيه سياسة فرنسا هو العمل الشهير الذي يحمل عنوان **مصير الشرق الأدنى ودور فرنسا في سوريا**، في عام ١٩٢٢، حيث يحدد بشكل أكثر وضوحاً مهمة فرنسا:

«إذا شاءت فرنسا ذلك، فإن تحرر القومية العربية التدريجي الذي يمكنها توجيهه ومساعدته، من دمشق في المركز، سوف يجعل منها، بأكثر من ذي قبل، معلمة الشرق التي لا ينازعها أحد والملهمة التي سوف تثق فيها كل القوميات المجاورة، من مصر إلى فارس. والآن إذ يبتعد خطر نشوب نزاع فرنسي ـ عربي في سوريا من يوم إلى آخر، فإن مثل هذه الإمكانيات المستقبلية ترتسم وتتحدد.

«ويكفي لذلك أن تكون فرنسا عادلة، أن تقبل أن تظل الحَكَم الذي لا جدال حوله والذي يسوي الخلافات بصبر، وأن تعرف كيف تصبح الناصح، المزود بسلطات كاملة، الذي يعزز شيئاً فشيئاً الوحدة القومية السورية، بما يتماشى مع أماني السكان نفسها. وفي هذه الروح، فإن المصاعب الحالية، جد المزعجة، سوف تُحَل

الواحدة بعد الأخرى، بفضل فرنسا. أولاً مسألة بيروت التي سوف تصبح محك استقامتنا: إن متجر سوريا الفكري إن لم يكن الاقتصادي، مركز الإحياء العربي، يجب أن يبقى على ما هو عليه؛ فلم يعد بالإمكان ربطه بكومينات لبنان الجبلية ارتباط جنيف بسافوا أو ليون بدوفينيه في الأزمنة الخالية. ثم مسألة لبنان الذي يجب تركه سيداً لمصائره، حراً في الاتحاد، في الوقت المناسب، مع الأمة السورية، بعد إجراء بعض التصحيحات المتكافئة في الحدود. وأخيراً مسألة الدروز والنصيريين الذين يجب تحقيق الاعتدال لخصوصيتهم الفوضوية ولكن دون تحويل اتجاهها لتصبح سلاحاً ضد المركزة الحديثة التي ينشدها قوميو دمشق وحماة وحمص.

«وكل ذلك إنما يعني أن نظل موجودين في سوريا، فاعلين وحازمين (...).

«فليكن بوسع مسيحيي فرنسا، دون أن يقللوا من حماسهم الرسولي ومن دعايتهم اللغوية في الشرق، أن يحترسوا من الآن فصاعداً من خلطهما بالرسالة السامية الخاصة بالتعاطفات والصداقة الإسلامية التي تشكل رسالة بلدهم الجديدة والملحة. وليكن بوسع الاشتراكيين الفرنسيين التخلي عن الامتناعية السلبية التي يمارسونها في السياسة الخارجية، عندما يقولون إنهم يؤمنون

بتطور اجتماعي للشرق متخلص من كل نفوذ غربي: فهذا سيكون مصدر تعاسته وتعاستنا.

«إن فرنسا يجب أن تظل موجودة على جميع الجبهات التي وضعها عليها تاريخها؛ إنها لا يمكنها الانطواء على نفسها، دون عقاب، بين جبال البرانس والراين. وسوف تجد في سوريا تلك السياسة الإسلامية الواجبة عليها حتى تصبح أفريقيا الشمالية فرنسية حقاً؛ وهي مسألة حياة أو موت بالنسبة للجيل القادم».

• اللجنة الوزارية المشتركة
الخاصة بالشئون الإسلامية

في عام ١٩٢٧، ينضم لويس ماسينيون إلى اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية ممثلاً لوزارة المستعمرات. وبوسعنا تتبع نشاطاته بفضل محاضر اللجنة. وأحد أول الموضوعات التي يعمل عليها هي مسألة الطوائف الحرفية المسلمة. ومع أن هذه كانت مسألة عالجها بالفعل بالنسبة للمغرب، إلاّ أن منظور اللجنة سياسي بشكل مباشر أكثر:

«ألمح الرئيس إلى الدعاية الضارة التي يتعرض لها الآن العمال الأفارقة الشماليون من جانب عملاء روسيا وأشار إلى أن هناك تصوراً مفاده أن بالإمكان العثور في الطوائف الحرفية المسلمة على وسيلة لاعتراض سبيل هذه الدعاية. والحال أن هذه الطوائف الحرفية قد اختفت تماماً في الجزائر على أثر تطبيق تشريع العمل ساري المفعول في فرنسا على رعايانا الجزائريين. وهي لا توجد في تونس إلاّ بأعداد قليلة لكنها ما تزال قوية في المغرب.

«على أن المؤسسات الطائفية الحرفية لهذا البلد الأخير قد درست بالفعل من جانب السيد ماسينيون من زاوية، والحق يقال،

علمية بأكثر مما هي عملية. ومن ناحية أخرى، فقد لخص السيد ماسينيون في المذكرة التي وزعت على أعضاء اللجنة المسائل التي سيكون من شأن دراستها السماح لهم برؤية الوسائل التي يمكن التوصية بها للحيلولة دون موت بل، إن أمكن، لتنشيط هذه الهيئات القائمة ليس على تناحر أرباب العمل والعمال وإنما على التعاون بينهم، على العكس من ذلك. وسوف يكون بوسع أعضاء اللجنة أن يدرسوا على مهل هذه المسائل إلى أن يجئ اليوم الذي يسمح فيه حضور السيد ماسينيون بمناقشتها على نحو مثمر».

ومذكرة ماسينيون تحمل تاريخ ٩ يونيو/ حزيران ١٩٢٧ وتتعلق بالمسألة النقابية في تونس:

«يلفت السيد ماسينيون الانتباه إلى مذكرة يشير فيها إلى الفئتين الكبريين للعمال التونسيين وإلى الأضرار التي يمكن أن يمثلها، من الزاوية الإسلامية و، عرضاً، من الزاوية الدولية، تطبيق مشاريع المندوبية السامية العامة في تونس والخاصة بتطبيق قانون عام ١٨٨٤ على العمال الأوروبيين وبخلق مجالس مناظَرَة للعمال التونسيين (أنظر الملحق)».

وتدور في اللجنة مناقشة حول ضرورة تشريع عمالي في تونس وفي المستعمرات وحول خطر استخدام الأهالي لهذا التشريع

في غايات معادية للفرنسيين. ويجري تشكيل لجنة مؤلفة من أوجوستان برنار ولويس ماسينيون وفيكتور بيكيه وممثل لوزارة الداخلية وتكليفها بإجراء استقصاء أكثر عمقاً.

والحال أن المذكرة غير الموقعة والواردة في الملحق إنما ترصد قطاعين للعمل في تونس: الطوائف الحرفية ذات الاتجاهات المحافظة القومية المعتدلة، والموالية بالأحرى تجاه الحماية، والعمال الذين هم خارج أطر الطوائف الحرفية ويعملون في المشاريع الأوروبية الكبرى حيث يوجد مسلمون وغير مسلمين؛ ويجب مراعاة الأوائل الذين لا يحوزون غير حياة بطيئة الإيقاع وإن كانوا يشكلون نخبة البورجوازية المسلمة:

«من الناحية الإسلامية، تنشأ من ثم المصاعب التالية:

«١. إذا كان الأمر يتعلق بوضعية عامة للعمال المسلمين التونسيين، فلابد من مراعاة صدى هذه الوضعية المباشر على السياسة الاجتماعية للحكومة العامة للجزائر وللمندوبية السامية العامة في المغرب.

«٢. إذا كانت هذه الوضعية تفصل مصالح العمال الأوروبيين في تونس (النقابيين بحكم قانون ١٨٨٤) عن مصالح العمال المسلمين الحرفيين الجدد العاملين معهم، فمن المحتمل أن يكون

ذلك مصدراً للمصاعب، كما أنـــه يـــهدد بإثـــارة ســـخط النخبـــة البورجوازية للطوائف الحرفية الغارقة منذ ذلك الحين في الجمـــهرة البروليتارية الأهلية.

«٣. يتوجب أيضاً مراعاة الانطباع الذي يحدثه لـــدى العمـــال المسلمين ربط اليد العاملة الإيطالية بقانون ١٨٨٤، والذي يصعـــب من جهة أخرى توفيقه مع ميثاق العمل الفاشي الجديد الذي ســـوف تسجله عصبة الأمم مع تحفظات، كما نأمل، فيما يتعلـــق بالـــهجرة الإيطالية. والحال أن خطر قيام تكتل عمالي إيطالي ــ مســـلم مـــن الساخطين هو خطر قليل الرجحان بالنسبة لتونس إلاّ أنه لـــم يكـــن هناك مفر من توضيح المسألة في ختام هذه المذكرة التمهيدية».

وفي عام ١٩٢٨، يقدم ماسينيون تقريـــراً عـــن رحلتـــه فـــي الشرق:

«يكتفي السيد ماسينيون بتقديم إيضاحات شفهية حول مختلـــف المشكلات التي تسنى له دراستها خلال رحلته. وهو ينوي أن يحرر فيما بعد عرضاً أكثر منهجية وأكثر كمالاً لملاحظاته عندما يتســـنى فحص وفرز الوثائق التي جمعها. والحال أن بعثتـــه التـــي دامـــت ثلاثـــة شهـــور، من ١٥ أكتوبر/ تشـــرين الأول ١٩٢٧ إلـــى ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٨، كان هدفها الرئيسي هو ســـوريا مـــن

زاوية إجراء استقصاء سوسيولوجي حول تنظيم روابط الحرفيين وتجمعات العمال. وكانت المحطات التالية هي مصر وفلسطين وشرق الأردن وبلاد الرافدين والشمال ــ الشرقي السوري ثم، بعد إقامة ثانية في سوريا، القسطنطينية.

«وفي مصر، تعلقت ملاحظاته بجامعة الأزهر والحداثة وبالنزعة القومية وبالرابطة الشرقية وتعلقت في القدس بلائحة المجلس الإسلامي الأعلى وتعلقت في بغداد بالمشكلة الشيعية وبالتعليم العام أمَّا في القسطنطينية فقد تعلقت بأرشيفات التكايا وبتتريك اسطنبول. ومن الزاوية الإسلامية العامة في سوريا، رَصَدَ الآثار الحميدة للرقابة العامة على الأوقاف. وهو يعرض مسألة الطائفة العلوية والنتائج المترتبة على إنشاء مناصب للقضاة الجعفرية في داخلها. وهو يشير إلى مشروع «طائفة» مسلمة في سوريا وفي لبنان وفقاً لنموذج «الطوائف المسيحية» سعياً إلى إصلاح القانون وتطبيع مسائل الأحوال الشخصية (والتي ما تزال إلى الآن خاضعة للقضاة [المسلمين] حتى في حالة خصومة قضائية بين مسيحيين). وتعد بعض «الفتاوى» مجندة لهذا الإصلاح الذي يبدو الليبراليون معادين له.

«وأخيراً، يعلن السيد ماسينيون أنه دشن استقصاءً حول روابط وتجمعات العمال في سوريا وفي لبنان عن طريق استبيان مماثل

للاستبيان الذي اعتمد عليه في المغرب في عـلمي ١٩٢٣ و١٩٢٤. وقد وجد مادة وثائقية ثرية فـي التشـريع الـتركي القديـم وفـي الأرشيفات البلدية. والحال أن الاستجواب المباشر لرؤساء الطوائـف الحرفية من جانب اللجان في مدن الداخل لابد له من أن يوفر نتـائج مهمة بعد عدة شهور من الآن. وهو يشـير إلـى أمثلـة للنقابـات وللروابط التي درسها بشكل خاص».

وفي ٦ مارس/ آذار ١٩٢٨، تثار من جديد مسألة النقابات فـي تونس: والتقرير جاهز وسوف يوزع في الاجتماع التالي. ثم تجـوي مناقشة مسألة أثارت اهتمام اللجنة: «إن أحد أبناء جزر القُمُر مـن أصل مسلم، تحول إلى اعتناق المسيحية ويقيم في زنزبار، يطـالب بتملك تركة والده وهو أمر تحرمه عليه السلطات القضائية المحليـة إعمالاً لقاعدة الشريعة الإسلامية التي تنص على عدم جواز تركـة بين مسلم وكافر». والحال أن موران، عميد كلية الحقوق بـالجزائر العاصمة، والذي دعي بشكل خاص للاستماع إليه بصفة استشـارية، يرى أن هناك مجالاً لتلبية مطلب القُمُرى المتحـول إلـى اعتنـاق المسيحية. فنحن بازاء قاعدة حق عام موجهة ضـد فرنسـا ومـن يتطورون في اتجاهها، ومن ثم فهي قاعدة غير مقبولة؛ وباسم مبـدأ التسامح، لا يمكن قبول قواعد الحق التي تتعدى على حقوق غـير المسلمين؛ وهذا أمر تكرسه أحكام القضاء فـي الجزائـر؛ وتـدور

مناقشة حول معرفة ما إذا كان تغيير الديانة يستتبع تغيير الوضعية القانونية.

«يرى السيد أوجوستان برنار أن التعارض القائم بين القانون الفرنسي، المستقل عن أية ديانة، والقانون الإسلامي، المرتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً، ليس تعارضاً غير قابل للإصلاح. إذ تجب مراعاة علمنة القانون الإسلامي التي تتجلى على أصعدة مختلفة.

«ويتدخل السيد ماسينيون في عين اتجاه تدخل السيد أوجستان برنار. فهناك في تركيا وفي مصر وفي سوريا تطور للقانون الإسلامي يؤدي إلى أحوال شخصية مستقلة عن الشأن الديني. وفيما يتعلق بالوضعية القانونية التي يجب إعطاؤها للمسلمين الذين يتحولون إلى اعتناق المسيحية، يشير إلى أنه سوف يكون من الأهمية بمكان معرفة ماهية الحل الذي أعتُمد في ماليزيا حيث تحول ما بين ٧٠٠٠ و٨٠٠٠ مسلم إلى اعتناق المسيحية. وهذه الحركات المسيحية هي بوجه عام حركات قومية. ويمكن افتراض أنهم بعد هجر وضعيتهم الإسلامية لم يطالبوا بالاستفادة من القانون الهولندي».

وتستعاد هذه المسألة في ٨ مايو/ آيار ١٩٢٨:

يقدم ماسينيون قراءة لرسالة من سنوك ـ هورجورونجي من لايدن حول الوضعية القانونية للمسلمين المتحولين إلى اعتناق

المسيحية في الهند الهولندية. فما له أهمية هناك هو قانون العرف المتحد أو غير المتحد بالقانون الإسلامي؛ وقد تطور تدريجياً قضاء يتعلق بحقوق المتحولين؛ فالمتحول يرث بموجب مبادئ العرف؛ أمَّا حيثما يشكل القانونُ الإسلامي العرفَ فإنه لا يرث. وتتلقى اللجنة معلومات عن ممارسات بلدان مختلفة.

ثم تجري تلاوة تقرير حول مسألة النقابات في تونس. ويتم التوصل إلى استنتاج أنه يجب اعتبار أن من غير المرغوب فيه مد قانون ١٨٨٤ حول النقابات المهنية ليشمل تونس وذلك بسبب الضعف العددي للعنصر الفرنسي في العالم العمالي في تونس وبسبب المخاطر التي سوف ينطوي عليها على حد سواء تطبيق أو عدم تطبيق هذا القانون على العناصر الإيطالية والتونسية. وفي هذا الاتجاه تسير أمنيات اللجنة.

ويجري التذكير بموقف جوهو الذي أيد في البداية تكوين اتحاد تونسي عام للشغل ثم انتقل فيما بعد إلى معارضة ذلك بسبب رفض النقابيين التونسيين اتباع توجهات الاتحاد الفرنسي العام للشغل. ويجري الاتفاق على أن العمل الاجتماعي يجب أن يكون قبل كل شيء عمل الحكومة:

«يقترح السيد ماسينيون عملاً من جانب الحكومة عبر تفتيش مناسب على العمل، سعياً إلى إعطاء توجه جديد للحرف الأهلية

الصغيرة. فهذه الحرف الصغيرة غالباً ما تتطلب فترة تدريب طويلة ولم تعد توفر قوت من يمارسونها وينجم عن ذلك سخط يمكن أن تكون له أصداء على النظام السياسي. والحرف الصغيرة المتضررة ليست فقط الحرف الغنية، فغالبية المهن التقليدية الصغيرة هي في هذا الوضع نفسه».

وفي مستهل عام ١٩٢٩، يعرض لويس ماسينيون نتائج استقصاء سوسيولوجي حول تنظيم العمال الحضريين والزراعيين في سوريا. وفي ٢٥ يونيو/ حزيران ١٩٣٠، يتناول مسألة مراجعة الصحافة: إن معهد الدراسات الإسلامية بالسوربون يجب أن يمركز التوثيق الذي يخدم في مراجعة صحافة العالم الإسلامي من جانب وزارة الشئون الخارجية ووزارة المستعمرات.

• مسألة الجزائر

في ٣١ مايو/ آيار ١٩٢٩، في اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية، نجد تقريراً لمييو، الأستاذ بالجزائر العاصمة، حول بعض التعديلات التي يجب إدخالها على وضعية الأهالي المسلمين. ويتعلق الأمر بمستوعَبين [مفرنَسين] يرفضون التجنس [بالجنسية الفرنسية] بسبب اعتراض الوسط الذي ينتمون إليه وبسبب تحفظ الفرنسيين في الترحيب بذلك. ويقترح مييو تجنساً تلقائياً لهذا الفريق: «سوف يكفي القول إن بعض الدرجات وبعض المهن تستتبع التجنس بشكل أوتوماتيكي؛ ولصالح أولئك الذين قد يبدون ترددات دينية أو اهتمامات قائمة على العرف أو القانون الإسلامي، سوف يكون بالإمكان الاحتفاظ ببعض الحقوق في إيجاد بعض الاستثناءات، بصفة مؤقتة. وبشكل مرحلي، سيكون بالإمكان الاعتراف ببعض الممارسات التي لن تكون من جهة أخرى في تعارض مطلق مع قانوننا المدني، كالطلاق عبر القبول المتبادل وإبقاء التركات في الخط الذكوري والحبوس. ومثلما يمكن للأهالي الآن، عبر الاختيار، الاستفادة في بعض الحالات من القانون الفرنسي، فسوف يكون بوسع المجنسين الاستفادة، عبر الاختيار، من بعض ترتيبات القانون الإسلامي». وعدد الأشخاص

المعنيين سوف يكون محدوداً؛ وسوف يؤدي ذلك إلى تحييد الوسط الذي تولد فيه بعض التطلعات إلى التمثيل النيابي. «يعلن السيد ماسينيون أنه من أنصار الإصلاح الذي اقترحه السيد لويس مييو فيما يتعلق بالتجنيس التلقائي للأهالي المتطورين. لكنه يريد لهذا الإجراء أن يكون أكثر اتساعاً. فهو يتعلق بنحو ٤٠٠٠٠ شخص. وهو يوافق على إدخال الأهالي من الكادر الفني للسكك الحديدية ضمن المستفيدين من هذا الإجراء.

«وهو يلاحظ، من جهة أخرى، أنه إذا كان من الضروري الاحتفاظ، لصالح الأهالي المجنسين تلقائياً، بحق الاختيار تأييداً لبعض ترتيبات القانون الإسلامي، فسوف يكون من المناسب عدم إغفال أن هذا القانون يتطور: فقد جرى التخلي عن بعض الأفكار، كالحبوس العائلية. ويجب تجنب إيلاء أهمية مسرفة لأشكال قانونية أخذت العقلية العربية تتخلى عنها.

«ويشير السيد ماسينيون إلى وضع القبائل [البربر] وأهالي آخرين ذهبوا إلى فرنسا للعمل وسوف يكتسبون فيها أفكاراً جديدة. فهم يتقدمون بمطالب عديدة للتجنس. وهذه المطالب تجد مصدر إلهامها، في معظم الأوقات، في أمناء الخلايا الشيوعية جد الحريصين على زيادة عدد الناخبين المنصاعين لهم. ولا يجب التخلي عنهم».

والحال أن اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية تتخلى عن الاهتمام بهذه المسألة حيث جرى تكليف لجنة وزارية مشتركة جديدة بدراسة مسألة تمثيل أهالي الجزائر والمستعمرات وذلك بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر. وفي ١٤ مارس/ آذار ١٩٢٩، تجتمع هذه اللجنة وتطرح على نفسها مسألة المجازفة برؤية التنازلات المقدمة وقد امتدت لتشمل عموم أهالي المستعمرات؛ وقد جرى اختيار ماسينيون وأوجوستان برنار لتقديم التقرير السياسي؛ وسوف يزور ماسينيون الجزائر لكي يضطلع باستقصاء في أوساط الأهالي.

وفي ١٥ أبريل/ نيسان ١٩٣٠، يقدم ماسينيون تقريره على شكل إجابة عن سبعة أسئلة طرحت في الخطاب الافتتاحي الذي ألقاه السيد أندريه تارديو في ٤ مارس/ آذار ١٩٢٩. ولا ننوي هنا تحليل مجمل التقرير الذي يتوصل إلى إنشاء كتلة انتخابية أهلية تشمل النخبة الجزائرية وتصوت في الانتخابات الفرنسية، بل ننوي تمييز بعض الأفكار الرئيسية الماسينيونية بشكل خاص:

من الواضح أن هناك نخبة جزائرية: «من المؤكد أن هذه النخبة ضعيفة عددياً (لكن الحال كذلك في كل مكان)؛ ولإثبات عدم أهليتها للمشاركة في ممارسة حقوقنا السياسية، قيل إنه لو أتيح لها الصعود إلى ذلك، فسوف تنتهي، كالوفد في مصر، إلى استغلال

الفلاح والعامل الأهلي بشكل أكثر قسوة عقماً و«خسارة» من المؤسسات الكبرى للاستعمار الأوروبي، لكن من غير الوارد السماح لها بمحاولة ذلك. فنحن هناك، ويجب الاعتراف بأن الجمهرة المسلمة، الفلاحية والعمالية في الجزائر، إنما تظل التربة الاجتماعية التي تنبثق منها باستمرار (كما في كل مكان آخر) النخبة البورجوازية، حيث تشعر الواحدة أنها ما تزال متضامنة مع الأخرى (كما كانت الحال عندنا في سنوات ١٩١٤ ــ ١٩١٨)، حيث الأهالي الفقراء يحقدون بدرجة أقل بكثير على أغنيائهم، حتى الأكثر شحاً بينهم، من حقدهم على الأكثر كرماً بين المستوطنين المهاجرين: فهم ليسوا من دم واحد. فهل يليق بنا أن نعمل على مولد صراع الطبقات بين الأهالي الجزائريين، عبر حرمان النخبة المحلية من أي دور اجتماعي نافع، سعياً إلى الاحتفاظ بسيطرة مباشرة على العامل والفلاح ؟ إن هذه الماكيافيلية سوف تتكشف وسيكون من شأن رأسمالية غير ذكية أن تعمل، مرة أخرى، لصالح الشيوعية وذلك بحرماننا من الطبقة المتوسطة».

وهذه النخبة متعطشة إلى الثقافة الفرنسية: «إن طبقة بورجوازية آخذة في النشوء، من بين صفوف الحرفيين الأغنياء، يبرز أبناؤها بشكل مطرد في الليسيهات، على رأس الفصول غالباً. وهناك رغبة عارمة في التعلم بالفرنسية والحال أن إدارة التعليم

العام هي التي تكبح ذلك، وذلك على الأرجح بسبب نقص الكـــوادر والاعتمادات المالية. وهذا صحيح بشكل خـــاص بالنســـبة لتعليـم الشابات المسلمات: إن التحيزات المعاديـــة تتفـــــكك، لكـــن إدارة التعليم العام لم تنشئ جميع مدارس البنات التي طُلبت منـــها. وفـــي هذا الصدد، فإن تخلف الجزائر قياساً إلى جميع البلدان الإســـلامية الأخرى، خاصة مصر، هو فضيحة حقيقية، نتحمل دائماً المســئولية عنها. وحتى لا نأخذ غير القبائل [البربر]، حيث التقدم الثقافي جـــد واضح بين الرجال، فإننا لم نتمكن بعدُ، وذلك بعد ستين عاماً مـــن الاحتلال، من إنشاء مدارس تدبير منزلي تعلـم النســاء اللاتـــي لا تعرف نسبة ٨٥% منهن الحياكة بشكل مناسب: ومـــن المعـــروف أيضاً أنه، بالنسبة للوضعية القانونية للمرأة القبائلية والتي تعد أســوأ بكثير من وضعية المرأة المسلمة، فإن مشروع ريتشي مازال قيـــد البحث في البرلمان منذ عامين. والحال أن تحفظاً إدارياً، ليـس دون مقاصد خفية، قد جعلنا نحاول تكليس الإسلام في الجزائر ومازلنـــا نحمي فيها خرافات القانون التقليدي (كالبو مرقود: الابن الذي يولـد بعد موت أبيه بعامين) والتي لا يرفضها الحزب الإصلاحي وحـــده، بل يهجرها الحزب شبه الوهّابي (السلفي) نفسه باعتبارها بالية عفـــا عليها الزمن. وبشكل متزايد باطراد، يحشد هذان الحزبـــان غالبيـــة النخبة الثقافية المسلمة الجزائرية، المعبرة عن نفسها تعبيراً دينيـــاً؛

ومن ثم فهي تبدأ في الشعور بنفسها؛ بل إن «جناحــها اليســاري» الإصلاحي، الأكثر أهمية، يتوجه بشكل واضح نحو الفرنسة، ليــس فقط نحو الجزائر العاصمة، بل نحو باريس، حيث يحلــم بغــرس الإسلام هناك، بمساعدة أولئك المتفرنسين؛ وهــذه القبلــة الزمنيــة [الدنيوية] يجب تذكرها وتأملها».

وينتقد ماسينيون عدم تماسك العلاقات الإدارية بيــن بــاريس والجزائر العاصمة والذي يزيد من النزاعات علــى الســلطة بيــن إدارات الحكومة العامة وإدارات الوزارات. لكنه معــاد لارتخــاء العلاقات مع المتروبول.

وهو يحلل أهميــة الأحــوال الشــخصية بالنســبة للأهــالي الجزائرييــن: «انها جسيمة، ولا يجب التقليل من أهمية الحساسيات الناشئة عنها، لكــن ذلك ليس عقبة دائمة؛ إنه رد فعــل غريــزي يتفكك في الجزائر، وهي بلد متأخر في هذا الصدد، تحــت صدمــة الاعتراضات النفعية ذاتها الموجودة في البلدان الإسلامية الأخــرى الأكثر تقدماً حيث يشهد القانون العائلي الآن تحولاً ســافراً. وفــي الجزائر، كان استقصاء عام ١٨٩١ (الذي يجــب تحديثــه) قــد أوضح بالفعل أن خمسة أسداس رؤساء الأســر يكتفــون بزوجــة واحدة، ثم إن الاحتكام إلى القانون الفرنسي، وهــو خيــار ارتــآه القانون، إنما يجري اللجوء إليه بشكل مــتزايد بــاطراد. وبالنســبة

للقبائل [البربر]، يبدو مؤكداً أنه سيكون بالإمكان العمل على انتقالـها من قانون البربر العرفي إلى القانون الفرنسي دون مرور بالقـانون الإسلامي؛ إلاّ أنه لكي يحدث هذا، سوف يتعين، بشكل موازٍ لجهود حقوقيينا، السماح لإدارة الشئون الأهلية بصياغـة سياسة منهجيـة تجاه البربر (كما حدث فـي المغـرب) والكـف عـن السمـاح بالتعريب، عبر تراث توحيد عبثي، لمناطق ما تزال بربرية اللغـة حيث مازال هناك إصرار على القيـام بترجمـة عربيـة للأحكـام الصادرة ومراسلة بالعربية مـع البلديـات المختلطـة ومشايـخ الدوارات [القـرى]، الخ.

«وبوجه عام، من الواضح أنه لابد من ممارسة رقابـة يقظـة على جميع الأشكال الجديدة للاتصال الاجتماعي الذي يقرِّبُ الأهالي من الحضارة الأوروبية، وقد تبين ذلك خلال إرسـال الممرضـات الزائرات الأوروبيات الأوائل إلى الريف، دون تحضـير، كمـا أن تعميم عنابر النوم المختلطة والمهاجع الجماعيـة المختلطـة بيـن الداخليين (أو الجنود) الأوروبيين والأهالي ليس هـو الآخـر دون خطر».

وهو يدرس مسألة التجنيسات القانونية: «لابـد مـن شـجاعة مدنيـة حقيقية لدى رؤساء الأسر المائة الذين يواجهون علناً، فـي كل عام، اعتراضات اخوتهم في الدين إذ يطالبون، بشكل فـردي،

عبر التخلي عن أحوالهم الشخصية، بتجنيس غالباً ما يتم التسويف فيه ونحن لا نمتن لهم كثيراً على ذلك».

وتتبع المشكلة من أن أبناءهم، خاصة البنات، يتمسكون بالوضعية الإسلامية في غالبيتهم، ومن هنا أهمية قانون حمايةِ عبر التسجيل في سجلات.

ثم يتناول المسألة الأساسية الخاصة برسالة فرنسا:

«إن الجزائر العاصمة هي واحدة من كبريات مدن فرنسا؛ إنها «رأس جسر» الحضارة الفرنسية، وقاعدة تغلغلها في الوسط الإسلامي الأفريقي الشمالي برمته. وهذا الوسط يشهد تحولاً اجتماعياً سافراً ورسالتنا التاريخية نحوه لم تنته، وهو لم يعد يملك من رصيده الخاص غير مثل أعلى ثيوقراطي عفا عليه الزمن أو عادات قبلية غير متماسكة؛ ويبقى علينا أن نربيه تربية سياسية وأن نغرس فيه الشعور بهذه الفكرة الأساسية جد المهملة، في هذه الأزمنة التي تتميز بالروح النقابية المسرفة، وهي الفكرة الخاصة بدولة «حافظة»، صارمة، وبعدالة فوق الطوائف الحرفية، وبقانون مدني واحد بالنسبة للجميع. ومن ثم فإنه لا يجب شل عملية القيام بنشرٍ في هذه الكتلة الأفريقية الشمالية لفرنسة فكرية بل وروحية تشع من الجزائر العاصمة كمركز إلى تلمسان وقسنطينة حيث

قرب المغرب من الأولى وقرب تونس من الثانية يعرضهما لـهجوم وقتي من جانب نزعة عربية «مغربية»، مصاغـة وفـق النمـاذج المشرقية، بما يشكل صياغة مفتعلة لايديولوجية تجهل الامكانيـات الحقيقية الغربية لجنس بربري [نسبة إلى البربر] بشكل جد عميق.

«وقد تسنى بالفعل، في دهشة وفي فرح، رصد أن المسـلمين الجزائريين، النازحين منذ الحرب إلى الدار البيضاء وإلـى تونـس العاصمة، قد ساعدوا مساعدة عظيمة على نشر الثقافـة الفرنسـية هناك: وهذه الظاهرة ليس من شأنها إلاّ أن تزداد كثافة.

«ومن ثم فلم يعد يتعين على احترامنا للإسلام الجزائـري أن يميل إلى تكليسه عبر القانون ولا إعادة تعريبه عبر المدرسـة، لأن نخبة الجزائر الأهلية ما تزال تتوجه إلى فرنسا وما تـزال تؤمـن بباريس، فلنرحب في القوت المناسب بهذه الفرصة الرائعـة لكـي ننصف هذه النخبة ولكي نساعدها على المشاركة في مجمل حياتنـا المتروبولية، معززين بذلك نفسه أبناء جنسـنا علـى تلـك الأرض الإفريقية التي نجح عمل آبائهم الصبور في جعلها أرضنا».

وفي أول مايو/ آيار ١٩٣٠، تجتمع اللجنة في جلسة موسـعة: ويذكِرُ تارديو بأن اللجنة موجودة لتقديم الرأي وأن الحكومـة هـي المختصة باتخاذ القرارات. والواقع أن ماسينيون، في داخل اللجنـة نفسها، سوف يكون وحيداً في رأيه وسوف يتم رفض تقريره.

الدورات الخاصة للجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية

سعياً إلى تقديم بعض الترضيات إلى أهالي الجزائر، يعاد، في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣١، تنظيم اللجنة الوزارة المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية:

المادة ٨.

«اللجنة الوزارية المشتركة مكلفة بأن تدرس، بمشاركة الأهالي المسلمين الجزائريين، كافة المسائل التي تخص أحوالهم الشخصية وتمس مصالحهم الأدبية والدينية».

وفي يونيو/ حزيران ١٩٣٢، تنعقد الدورة الخاصة الأولى للجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية. وفيها تجري مناقشة تعديل سن البلوغ عند المسلمين.

٦٣ «السيد ماسينيون: يجب بذل جهد في اتجاه تحديد نظام مشترك لعدد من المسائل الجوهرية، وهو تحديد من شأنه أن يسهم في إيجاد أخلاق مدنية مشتركة أولية ومن شأنه تفادي الاحتمالات الحالية للاحتيال التقليدي والجماعي».

وتنعقد الدورة الخاصة التالية في ٣ مارس/ آذار ١٩٣٣، وفيها تجري مناقشة مسألة قانون العائلة.

وفي ١٩ مارس/ آذار ١٩٣٤، في الدورة العادية للجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية، وفي غياب ماسينيون، يتحدث الليوتنانت ـ كولونيل مونسابيير عن ظروف مرابطة قوات أهلية مسلمة في فرنسا؛ وخطر الاتصال بالعناصر المثيرة للقلاقل، خاصة إذا كانت تضم عناصر من الأهالي [المسلمين]؛ وضرورة ممارسة رقابة خارج الثكنات، خاصة بفضل هيئات الأمن العام.

وفي الدورة الخاصة التي تبدأ في الأول من مايو/ آيار ١٩٣٤، يجري توسيع المسألة لتشمل حق الخطابة في المساجد؛ ونظام الصحافة في الجزائر؛ وتنظيم التعليم الحر للغة العربية. ويجري إنشاء لجان فرعية لدراسة هذه المسائل.

«السيد ماسينيون: أتمنى كثيراً لو أن هناك نوعاً من الاتصال بين الأفكار المطروحة هنا والأفكار التي يتم التمسك بها في الجزائر العاصمة حول هذه المسائل المختلفة؛ فدون ذلك سوف تكون هناك ازدواجية نافلة في العمل وتداخلٌ، في حين أنه يجب أن يكون هناك تنسيق وارتباط.

«السيد دو سان كينتان يؤيد الأمنية التي أعرب عنها السيد ماسينيون».

وفي ٩ مايو/ آيار ١٩٣٤، كانت المناقشات حيوية: فنحن بازاء تقرير المندوب الجزائري المسلم الذي ينتهي إلى جواز ممارسة رقابة على الخطب في المساجد. فهذا يتماشى مع مبادئ الشرع الإسلامي في الموضوع كما يتماشى مع التطبيق الذي حدث لهذه الممارسة للرقابة عبر التاريخ من جانب ملوك بلدان الإسلام. وهناك دعوة إلى مراقبة الصحف، بما في ذلك الصحف الفرنسية الموزعة فيما وراء البحار وتثار مسألة مراقبة المدارس الخاصة العربية. ولا يتدخل ماسينيون بالكلام حول الموضوعين الأولين، لكنه يتكلم عن الموضوع الثالث مشدداً على الدفاع عن التعليم بالعربية الفصحى:

«مذكرة السيد ماسينيون حول موضوع تنظيم التعليم الحر للغة العربية:

«من الملح عدم السماح بأن يحدث في الجزائر اعتماد للفكرة القائلة بوجود تعارض بين الثقافة الفرنسية والثقافة العربية الكلاسيكية وبأن على الحكومة الفرنسية اتباع خطة تدمير لهذه اللغة العربية لأنها حاملة للدين الإسلامي. وتعويضاً عن المراقبة الأكثر صرامة للمدارس الحرة الإسلامية للغة العربية والتي تفرضها بعض التغلغلات السياسية، أطالب بدعم رسمي لمبدأ التشجيع المادي للمدارس العربية التي تعلم العربية الفصحى وذلك عن

طريق الوفود التمويلية حيث يتوجب على المندوبين الفرنسيين أن يكونوا أول من يتبنى الدعوة إلى الإعلاء من جديد من شأن العربية الفصحى في امتحانات البكالوريا».

والحال أن رأي اللجنة يسير في آن واحد في اتجاه مراقبة التعليم بالعربية وفي اتجاه تعزيزه.

وفي ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٤، في دورة عادية، يعاود مونسابير التشديد على الظروف التي تتواصل فيها الدعاية الثورية والمعادية لفرنسا في صفوف القوات الأهلية المسلمة المرابطة في فرنسا (نجمة شمال أفريقيا بين جمعيات أخرى):

«يعرض السيد ماسينيون النتائج التي تم التوصل إليها من خلال عملين أفريقيين شماليين خاصين يوليهما اهتمامه، تم الاضطلاع بهما في جانفيلييه وفي ليون. وهو يرى أن المراقبة البوليسية لا يسعها أن تؤدي إلى أية نتيجة حاسمة في مكافحة الدعاية الضارة الموجهة إلى العسكريين الأفارقة الشماليين، ما لم تكن هذه المراقبة مصحوبة، حيال أولئك العسكريين، باعتناء صادق وبجهد يهدف إلى الفهم وباتصال متواصل. ويرى السيد ماسينيون أن بالإمكان العثور على أشخاص مستعدين للانكباب على أعمال في هذه الروح».

وبشكل موازٍ، يشارك ماسينيون في ١٢ أبريل/ نيسان ١٩٣٥ في لقاء، برئاسة الماريشال فرانشيه ديسبيري، للجنة الصداقة الأهلية التي سوف تصبح لجنة الصداقة الأفريقية والتي تمتد مهمتها الأوسع إلى التعبئة وإلى زمن الحرب.

«في المناقشة التي تلت ذلك شارك: الجنرال فيرو، مشيراً إلى الفوائد التي سوف ترتبط بقيام السلطة العسكرية بدفع جميع المخصصات والمعاشات، الخ، ذات الأصل العسكري؛ والسيد ماسينيون مشيراً إلى الأضرار والأخطار التي تنطوي عليها حملة إعلامية، إسرائيلية المنشأ، موجهة ضد الأهالي والعسكريين المسلمين».

ويتم اعتماد اللائحة.

وفي ٢٥ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٥، تقوم اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية والمعقودة في دورة خاصة بدراسة نتائج الآراء التي طرحتها اللجنة في الدورات السابقة:

«إن الآراء التي تم التعبير عنها في الدورات السابقة إنما تتعلق، في المقام الأول، بإتاحة الاستفادة من المعاش لأرامل الموظفين المسلمين المتزوجات وفق العرف العربي قبل صدور مراسيم ١٣ أبريل/ نيسان ١٨٩٩ و١٦ يوليو/ تموز ١٩٠٧ و٢ فبراير/ شباط ١٩٢٦.

«وفي المقابل، لم تأخذ الإدارة بآراء اللجنة حـول الوصايـة. وفيما يتعلق بحق إلقاء الخطب في المساجد ومسألة نظام الصحافـة في الجزائر، فقد جرت تلبية جزئية للرأي الذي أعربت عنه اللجنـة وذلك بمرسوم ٣٠ مارس/ آذار ١٩٣٥. والحال أن الدكتـور بـن جلول، وهو عضو جديد في اللجنة، يحتج على واقع أن الجزائـر لا تخضع للنظام المطبق في المتروبول فيما يتعلق بالصحافة. ويشـدد السيد ماسينيون على ضرورة توصيل أفضل للوثائق الإدارية بيـن باريس والجزائر العاصمة».

والمسألة الجوهرية في جدول الأعمال هي تعليم العربية فـي الجزائر: ويجري الاستماع أولاً إلى التقرير الأولـي لأوجوسـتان برنار ثم يجري تحديد نظام المناقشات بالنسبة للجلسات التالية. وفـي ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول، يتدخل ماسينيون:

«إن الطفل العائد إلى ذويه إنما يفتقـد التعليـم الـذي تلقـاه. والطالب الذي يريد تكوين أسرة لا يجد رفيقة من عين مسـتواه. إن المسألة جد حساسة.

«وبما أنني كلِّفتُ بمهام في كثير من البلدان الإسـلامية، فقـد كان لابد لي من رصد شبه انعدام مدارس البنات، والخـاص فـي الجزائر. وأنا أعرف جيداً أن المسلمين المالكيين، فـي الجزائـر، كانوا، في الماضي، يعالجون المسألة بانزعاج لكنني، في القـاهرة،

تسنى لي أن أرصد أن كثيرات من البنات يواصلن الآن دروسهن في الليسيه، سافرات، حتى سن السادسة عشرة؛ ومن ثم بعد البلوغ. وأنا لا أعرف إلى أية درجة يمكن أن نرتأي بالنسبة للجزائر مثل هذا التغيير للعادات. وأتمنى طرح المسألة للنقاش.

«السيد جو: هذه مسألة جسيمة، تُرى ما هو رأي الأعضاء المسلمين في اللجنة في هذا الموضوع ؟

«السيد بن خلاف: إنني واثق من أنني أعبر عن الشعور الإجماعي لزملائي من الأهالي إذ أؤكد لكم، دون تردد، أننا تخامرنا رغبة حارة في أن تتاح لنا فرصة إرسال بناتنا إلى المدرسة الفرنسية. ومن ثم فلا يسعنا إلاّ أن نتمنى بذل جهد في هذا الاتجاه، ولكن أولاً لصالح السكان المتطورين في المدن وبشرط أن تعليم الصبيان، الذي يجب أن تكون له الأولوية، لن يتعرض من جراء ذلك لأي ضرر وأن يواصل تطوره بشكل مطرد.

«السيد زروق محي الدين: سوف أقول لكم في التو والحال إن المسلمين قد تطوروا. إن مسلمي المدن سوف ينظرون بعين الارتياح الكبير إلى تردد بناتهم على المدارس. ومن جهتي، فإنني أب لخمس بنات، تلقت ثلاث منهن دروس شهادة الدراسات؛ وأنا أعرف في الجزائر العاصمة أسرة فيها ثلاث بنات حائزات للبكالوريا. على أن لدينا شاغلاً: هو مسألة العمر. فإلى أي عمر

يمكن إرسال البنات إلى المدرسة ؟ أود لو أن الإدارة رأت إنشاء مدارس للبنات في المدن الكبرى، خاصة المدارس المهنية.

«وفي قسنطينة، هناك مدرسة خاصة بالبنات فقط؛ وقد أعطت نتائج طيبة.

«السيد فيلار: هذه الحالة الذهنية جديدة. وأنا لا أوجه لوماً. قبل بضع سنوات، كانت الحالة الذهنية على الضد من ذلك. والحال أن الإدارة الفرنسية، حرصاً منها على مشاعر المسلمين، قد ترددت أمام تعزيز إنشاء هذه المدارس.

«السيد ماسينيون: بالضبط، واليوم يعترضون على أننا لا نبذل جهوداً لتعليم البنات، وهذا الكلام يصدر خاصة عن سوريا ومصر».

ويشار إلى التعليم الأولي وتعليم الإناث التدبير المنزلي:

«السيد ماسينيون: يشير التقرير الأولي إلى ١٢ ٠٠٠ بنتا تتلقين التعليم. وهذا قليل. وقد أشرت دائماً إلى تعليم العربية الفصحى من حيث هي لغة حضارة. والعربية لها دور مستقل. والمرأة محافظة. وبوسع المرأة أن تحتفظ، بفضل تعليم بالعربية، بعنصر معين من الثقافة. ويمكن عمل ما تم عمله بالنسبة للفارسية في فارس: تقديم التعليم بالعربية في الجزائر لعدد معين من البنات. وقد تم عمل ذلك في تونس.

«السيد بن جلول نيابة عن السيد غلام الله: إنني على اتفاق مع السيد الأستاذ ماسينيون؛ فتعليم الفتاة يجب أن يكون بالعربية. وما فائدة دبلوم في اللغة الفرنسية لفتاة ؟

«باختصار، يجب إعطاء البنات الجزائريات تعليماً خاصاً بالتدبير المنزلي وتعليماً باللغة العربية.

«السيد جو: الأستاذان بمدرسة اللغات الشرقية، السيدان بلاشو وبن حمودة، سوف يحضران غداً صباحاً؛ وسوف يسرنا كثيراً سماعهما».

ويتوقف ماسينيون عن التدخل في هذه المناقشة التي تستمر، في يوم ٢٩، بحضور ممثلين لمستعربي اللغات الشرقية:

«السيد جو: تلقيت أيضاً رسالة من زميلنا السيد ماسينيون الذي يمر بموقف عصيب؛ فابنه الأكبر قد مات فجأة في ليلة الثلاثاء وفي صباح الأربعاء رحل ابنه الأصغر لإجراء عملية جراحية. ولم يتسن له المشاركة في تتمة أعمالنا وهو يرجوني أن أعذره.

«وأنا أبعث إلى السيد ماسينيون بتعاطفي وكذلك بتعاطف جميع أعضاء اللجنة».

ويعتذر ماسينيون عن المشاركة في الدورة الخاصة المعقودة في مارس/ آذار ١٩٣٦.

• ماسينيون والشرق الأدنى

بالإضافة إلى آرائه حول الجزائر، يهتم ماسينيون بالشرق الأدنى. وبعثته، من ١٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٢٧ إلى ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٢٨، لا تتصل فقط بالطوائف الحرفية وبالتعليم العام، وإنما تتصل عموماً بالوضع السياسي والاجتماعي في سوريا. وهو ينتقد النوعية السيئة هناك للوظيفة العمومية الفرنسية المحلية التي، في غالبيتها الأعظم، تتجاهل استخدام العربية:

«يتوجب، في أقل القليل، استلهام النمط الإداري الأنجلو ـ عراقي: قليل من الموظفين، تعاقدات برواتب عالية وامتحانات تصفية بعد عام ونصف فيما يتعلق بمعرفة لغة البلد».

وهو يواصل معارضة السياسة المتبعة في لبنان وبشكل أعم المنظور المتبع والخاص بالتغلغل من الساحل إلى الداخل (صدارة بيروت) في حين أنه يجب العمل انطلاقاً من دمشق، بؤرة النزعة القومية المؤسسة على الوحدة السورية. والحال أن الخطأ الكبير لعمل فرنسا هو عدم الاستناد إلاَّ على حالة الحصار:

«كيف يمكن تطبيع الموقف ؟ إن السياسة الكولونيالية «الساحلية» ليس لها غير قيمة دفاعية واستراتيجية، وهي ليست

سياسة انتداب إيجابية. وسياسة التحريــر الديموقراطــي للفلاحيــن والحرفيين (أنظر التقرير الملحق) هي شيء سابق لأوانه: وســرعان ما سوف تنحط من جهة أخرى لتصبح بلشـــفية وســوف تســتثير احتجاجات فورية من جانب الدول المجاورة. تبقى سياسة واحــــدة، هي السياسة التي وصلت إنجلترا، بعد حل البرلمانات المحلية أكــثر من مرة، إلى تطبيقها في مصر وفي الهند وسوف تسعى، عبر حــل برلمان بغداد، إلى تطبيقها أيضاً في العراق. انها سياسة التعاون مــع الجناح اليميني للتحالف القومـــي. وهـــي سياســـة صعبـــة وشـــاقة ومضنية، وعرضة لكثير من الهزات، لكنها السياسة الوحيدة التـــي تحقق فعلياً وعملياً "انتداباً من جانب عصبة الأمم"».

وهو يقدم سلسلة بأكملها من الاقتراحـــات المحـــددة الخاصـــة بالكوادر السياسية السورية.

وإقامته الثانية في عام ١٩٢٨، من ١٠ أكتوبر/ تشـــرين الأول إلى ١٦ ديسمبر/ كانون الأول، تستعيد هذه الأفكار نفســـها. وهـــو يهاجم بقوة «التمشرق»:

«في بيروت خاصة أتيح لـــــي أن أرصـــد بيـــن الســـوريين والأوروبيين سوء التفاهم الروحي المتزايد الذي أشرت إليه آنفـاً إن السوريين، بينما يستفيدون من آلاتنا، يعفون أنفسهم مــــن الاقتـــداء بروحنا البحثية معلنين السفسطة الكسولة، الرائجة بالفعل في مصـر،

والتي تذهب إلى أننا ندين لهم بأصل ثقافتنا وأننا لا نفعل غير سداد ديننا لهم. والفرنسيون الموجودون في المشرق، عبر سفسطة كسولة أخرى، يعلنون أنه لا فائدة من السعي إلى تهذيب أخلاق السوريين وأن سوريا هي بلد البقشيش والمشنقة والاستسلام للشر، وهم يستفيدون من ذلك، للأسف، لكي «يتمشرقوا» وينقلوا أحياناً ميكروب التمشرق إلى فرنسا. على أن من المؤكد اننا يجب، لما فيه صالحنا نفسه، أن نعمل على «إنهاء تمشرق» سوريا وإعادة تكييف نخبتها المثقفة، التي تلقت العلم عندنا، مع واجبات ملموسة ومحددة؛ وفي الساحة، أخيراً، يجب أن نحوّل التوجه الحرفي للحرفيين السوريين».

ونقد مصلحة الاستخبارات [الفرنسية] في المشرق هو أحد النصوص الأكثر توضيحاً لمنظور ماسينيون العلمي والسياسي:

«من الناحية الإدارية، لا أملك غير تأكيد الانطباعات الموصوفة في تقريري المؤرخ في ٣١ يناير/ كانون الثاني الماضي. فببطء ولكن بشكل مؤكد، يجتهد الجهاز القيادي في إفهام الموظفين أن الإدارة المباشرة ليست الهدف النهائي لنظام الانتداب. ونقطة الاتصال بين النظام المدني والهيكل العسكري لاحتلالنا هي مصلحة الاستخبارات. ومن بين ٧١ ضابطاً، سوف نجد أن ثلثهم مستعد تماماً للتخصص في ما يعد الوظيفة المثمرة فعلاً لهذه

المصلحة المهمة والتي لا تتمثل مهمتها في محض الانكباب على سياسة سطحية أو دسائس مشرقية بل في التعرف المنهجي على القوى السياسية والاجتماعية وروافع قيادة البلد، وهو ما نجحت الإدارة العامة لشئون الأهالي في المغرب في الاضطلاع به على نحو جيد. ومن سوء الحظ أن المديرين الثلاثة الذين تعاقبوا على مصلحة الاستخبارات في سوريا، السادة كابيترل ودينتز وكاترو، لم يقوموا بأي توثيق أساسي مع أن استمرارية مصلحة الاستخبارات تعتمد على ذلك اعتماداً جوهرياً. والحال أن هذا هو ما نهتم الآن بعلاجه: إن لدينا الكثير من الضباط المؤهلين لإجراء دراسات اجتماعية محلية ومن واجبي أن أعبر عن شكري لعدد منهم لما قدموه لي من دعم في هذا الصدد في استقصائي الخاص بالمنظمات الحرفية والزراعية».

ويلعب ماسينيون دوراً بالغ النشاط في إدارة المعهد الفرنسي بدمشق. وقد بذل مجهوداً قوياً في دفع هذه المؤسسة التي أنشأها الانتداب إلى التوجه نحو مسائل السوسيولوجيا الإسلامية. وهو ينجح في الحصول على موافقة لإنشاء الشعبة العلمية للمستعربين، في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٢٨، ثم في تحويل هذه الشعبة إلى معهد مستقل، في يوليو/ تموز ١٩٣٠. وهو يساند بقوة ترشيح روبير مونتاني، القادم من المغرب. ويمكن القول إن برنامج

السوسيولوجيا الذي ارتآه ماسينيون سوف يحققه مونتاني، أولاً في دمشق، ثم عبر المحادثات حول تطور بلدان الحضارة العربية وأخيراً عبر إنشاء الـ C.H.E.A.M. [المجلس الأعلى للدراسات العربية والإسلامية].

ويعود ماسينيون إلى الشرق الأدنى في ١٩٣٠ ـ ١٩٣١، لكنني لم أعثر حتى الآن على تقريره الخاص بهذه البعثة. وبالمقابل فإن تقريره عن البعثة التي سوف تستمر من ١٨ يناير/ كانون الثاني إلى ٢٦ مارس/ آذار ١٩٣٤ متاح. وهو يتصل بإقامة في مصر وبإقامتين في سوريا وبإقامة في العراق.

وهو يهتم في هذا التقرير بمسألة مستقبل اللغة العربية كلغة حضارة وذلك بوجه خاص مع نتائج الدورة الأولى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ولأول مرة منذ وقت طويل، يتناول مسألة الصهيونية:

«الصهيونية

«خلال مروري بفلسطين، استأنفت الاتصال بالأوساط الصهيونية التي أعرفها منذ عام ١٩١٧: ليس فقط في القدس (الجامعة اليهودية) وإنما أيضاً في تل أبيب. ودون الدخول في تفصيلات مسهبة، فإن استنتاجي الجازم هو:

«١. أن النهوض الصناعي الحالي للاستيطان الصهيوني، والذي أحدث انطباعاً قوياً في أوروبا، وذلك بفضل الدعاية الذكية، إنما يرجع جزئياً إلى اتفاق هتلر ـ روبين المعقود في هذا الصيف، وأنه لا يجب المبالغة في تحديد أمده؛ وأنه من السخف أن نتصور أنه، دون وجود القوات الإنجليزية، سوف يكون بوسع التشكيلات القتالية التي يسعى الصهيونيون إلى تكوينها أن تصمد للحظة أمام الحصار الضخم الذي تمثله الغالبية المسلمة التي تتجه، هي أيضاً، إلى تعبئات عسكرية وتبدو ساخطة بشكل متزايد.

«٢. أن المفوضية العليا الفرنسية في المشرق يجب أن تقاوم أيضاً (كما فعلت ذلك بالفعل)، بكل ما لديها من قوة، محاولات الاستيطان الاقتصادي الصهيونية التي تحاول تدخلاتٌ ماليةٌ قوية غرسها في جنوبي سوريا (شراء أراضي آل يوسف). والوثائق التي جمعتها في هذا الصدد توضح لي أنه لو استسلمت فرنسا لهذه المحاولات فسوف تراق الدماء من جديد في سوريا».

وهو يتحدث عن مسألة علويي سوريا وينزعج من مصيرهم في المستقبل في إطار سوريا موحدة:

«سوف يتطلب الأمر أيضاً خمس عشرة سنة من الإدارة الفرنسية المباشرة حتى يتسنى لهؤلاء الفلاحين استيعاب حقوقهم تماماً ومقاومة العودة الهجومية من جانب سادتهم السابقين».

وهو «يظل مقتنعاً بأن منح طرابلس حصانة سياسية، بإنهاء ضمها إلى لبنان دون إعادتها إلى سوريا لتصبح مركزاً اتحادياً أكان ذلك من وجهة نظر مجلس المصالح المشتركة أم من وجهة النظر الاقتصادية (مرسي، محطة سكك حديدية، مطار، خط أنابيب)، إنما يظل بالنسبة لنا أفضل حل يمكن تصوره إذا كنا لا نريد، من تنازل إلى آخر، أن نحقق الوحدة السورية ضدنا».

وكان قد جرى إرساله إلى العراق، بصحبة جابرييل بونور، لدراسة مسألة الأعمال المدرسية. وحيال خطر رؤية الدولة العراقية تتجه إلى احتكار المدارس الأجنبية بشكل شمولي، يساند فكرة إنشاء مدارس فرنسية ــ عربية تقبل بعض المطالب القومية العراقية كالدروس القومية. وهذا يفترض عقد اتفاق مع الحكومة العراقية ومن شأن إيجاد مفوضية للعراق في باريس أن يسهل الأمور كثيراً.

وهو يستفيد من إقامته ليسجل ملاحظة حول مسألة الشيعة في العراق:

«في مجمل عموميتها، تعد المسألة الشيعية الآن جد محتدمة في العراق. ومن المعلوم في الواقع، بحسب الإحصاءات الأخيرة، أن الشيعة في العراق يزيدون عن السنة بنسبة الثلث ويخوض الشيعة حملة بالغة القوة والانتظام للتوصل إلى أن يكون توزيع المناصب في الوزارات والإدارات بحسب الأهمية العددية لكل

وسط من الأوساط الطائفية، وهو ما يعد بعيداً عن واقـــع الحـــال: فالشيعة لا يحوزون ولو عُشر المنــاصب فــي الإدارات الرســمية والسنة يقاومون مطالبهم بقوة مطردة التزايد».

وفي ٢١ ديســـمبر/ كــانون الأول ١٩٣٤، تــدرس اللجنــة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية الحج المغربي. وفــي هذه المناسبة:

١٤٩ «يتساءل السيد ماسينيون ما إذا كــانت هنــاك أوقــاف مغربية في الحجاز وما إذا كان قد تم إجراء حصر لـــها. [رد بــن غابريت: أوقاف مغربية مدارة من جانب إدارة الحبوس].

١٥٠ «يلفت السيد ماسينيون انتباه اللجنة إلى مسألة سكة حديـد الحجاز التي تعتبر وقفاً، كما يلفت الانتباه إلى وقف أبو مدين فــــي القدس. وهو يطالب بحماية حقـــوق المغاربــة المتصلــة بــهذين الوقفين».

والحال أن هذا بداية شاغل سوف يقود ماسينيون إلى دراســته العظيمة عن وقف أبو مدين وسوف يقود فرنسا إلى الاهتمام سياسياً بمسألـــة الأماكن الإسلامية المقدسة في القدس.

ويعوزني التقرير الخاص بإقامة عام ١٩٣٥.

أما إقامة عام ١٩٣٦، من ٩ يناير/ كانون الثاني إلى ٢١ مارس/ آذار، فهي تتعلق بمصر وفلسطين والانتداب الفرنسي. وهي مهمة لأنها معاصرة لفترة توتر سياسي شديد في هذه المناطق الثلاث.

وفي مصر، يستحضر أعمال مجمع اللغة العربية، لكنه يتحدث أيضاً عن حواره مع عميد الأزهر، الشيخ مصطفى المراغي. ووفقا لماسينيون فإن:

«العميد، وهو يحدثني عن التكوين الشخصي لفكره، قدم إلي الخطوط العريضة لحداثة معتدلة معينة تستعيد، تحت شكل يتماشى مع الوقت الحاضر، الخطوط العريضة لبرنامج سلفه، الشيخ [محمد] عبده».

كما يتحدث ماسينيون عن الاضطرابات الطلابية مثلما يتحدث عن خطر تمردات من جانب الفلاحين المستثارين «من شأنها تجديد جرائم ١٩١٩».

وهو ينزعج على مستقبل الأقباط:

«ومن ثم فالمستقبل جد مظلم لأن هذه الطائفة القبطية القائلة بوحدة طبيعة المسيح مصرية بشكل أصيل وفريد. وهي تمثل السكان الأصليين وليس أمامها من بلد أجنبي تهاجر إليه».

لقاء مع الحاج أمين الحسيني، مفتي القدس الأكبر:

«رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الذي نظمته الحكومة البريطانية ورئيس المجلس الدائم للمؤتمر الإسلامي الجامع وزعيم ديني، كان أمين صندوق التمرد الدرزي في عام ١٩٢٥ ويعتبر على اتصال بصناديق الدعاية الإيطالية من خلال صديقه، الأمير شكيب أرسلان.

«اللقاء الذي رتبه صديق قديم مشترك، جعلني أراه من جديد تحت مظهر جد مختلف عما كانت عليه الحال في عام ١٩٢٠ وفي عام ١٩٢٧. لقد حاولت أن أفهم كيف ينظر إلى طاقات الاستقلال السوري القادم حيال الرأسمالية الصهيونية المستندة إلى مطالبة إنجليزية بجبل الدروز (لحماية خط الأنابيب). والواقع أن تحفظاته قد أعطتني الانطباع بأنه ربما كانت له في واقع الأمر صلات إيطالية. وقد اتضحت لي خلال اللقاء مسألة تاريخية. فإذا كان مشروع المعاهدة الفرنسية ــ السورية (الذي عملتُ من أجله في باريس، مع فؤاد الخطيب، والذي كان كليمنصو وفيصل قد وقعا عليه بالأحرف الأولى) قد فشل في يناير/ كانون الثاني ١٩٢٠، فمرجع ذلك هو أن فيصل لم يكن حكيماً إذ سلم نسخته من المشروع إلى حداد باشا الذي تحدث عنه إلى اللورد كيرزون في لندن. والحال أن اللورد كيرزون الذي كان منخرطاً آنذاك في بلاد

الرافدين في سياسة قمع وحشي، لم يحرص على أن يرى نفسه وقد أضرَّ به اتفاق فرنسي ــ عربي، وبما أن ف.بيرتلو كان قد حضر آنذاك إلى لندن للنظر في بنود معاهدة سيفر (التي أطلعني في الواقع على نسختها الأصلية بخط اللورد كيرزون) فقد تمكن اللورد كيرزون من إحباط المشروع.

«ويدرك المفتي تماماً التقدمات الصهيونية؛ وإذا كان الصهيونيون لم يفوزوا بالعُمدية إلاَّ في طبرية وإذا كانت عمديتا القدس وحيفا ما تزالان للعرب المسلمين، فمرجع ذلك هو نظام انتخابي لا يملك حق التصويت فيه غير دافعي الضرائب حيث لا تظهر غالبية المستوطنين الصهيونيين التي تعتبر فقيرة».

وتتزامن نهاية إقامة ماسينيون في سوريا مع الإضراب العام السوري وتشكيل وفد سوري مكلف بالتفاوض على معاهدة مع فرنسا.

ويلتقي ماسينيون مع اثنين من المسئولين:

«في دمشق، في لقائين مطولين مع هاشم الأتاسي، رئيس الوفد، ورياض الصلح، المستشار شبه الرسمي للوفد، تسنى لي التعرف على الصعوبة التي يواجهانها في محاولة إفهام أنصارهما المخاطر الخارجية التي تهدد حلمهما في الاستقلال السوري:

الجيش التركي في الشمال (مع عقبة الاسكندرونة) وتقدم الصهيونيين الاقتصادي في الجنوب (مع ميناء حيفا كقاعدة). وتحظى فكرتان رئيسيتان بالقبول: معاهدة من النمط العراقي (والتي كانت عاجزة مع ذلك عن حماية الأقلية الآشورية ـ الكلدانية) وقضم لبنان (بدءًا بأخذ طرابلس منه)، لبنان هذا الذي تأورب منذ ثمانية عشر عاماً بشكل جد ملحوظ. وأخيراً، لا يجرؤ هؤلاء القوميون على مجرد التفكير في تحديث القانون المدني، الأمر الذي أقدمت عليه بعد تركيا إيران ومصر والعراق (اللجنة البرلمانية المشكلة هذا العام) (من المؤسف أن نلاحظ أننا قد عززنا الإسلام الرجعي، في دمشق كما في الجزائر)».

وفي ٥ يونيو/ حزيران ١٩٣٦، يقدم ماسينيون انطباعاته حول المسألة السورية إلى اللجنة الوزارية المشتركة الخاصة بالشئون الإسلامية:

«في اللحظة التي يهتم فيها الجميع بالحركة القومية العربية، حيث تعمل إيطاليا من أجلها وحيث تسعى إنجلترا إلى تسهيل قيام اتحاد كونفيدرالي عربي، لا نفعل نحن شيئاً في هذا المجال. ويوجد في باريس الآن وفد سوري حاصل على تكليف من الهيئة العربية العامة. والحال أننا موجودون في سوريا لأجل غاية ثقافية وللوفاء

بالوعود التي قدمناها إلى المسيحيين وسوف يتعين أن نعيد وضع حماية الأقليات ضمن إطار سياسة ثقافية مؤيدة للعرب بشكل سافر؛ وذلك بالعمل على أن يقبل الوفد السوري أن يدرس بنفسه، ومن الداخل، مشكلة الأقليات، ويحثّ هذا الوفد على صياغة قانون مدني عربي حديث. وأنا لا أؤمن كثيراً بفعالية مجرد إشارة، في المعاهدة الفرنسية ـ السورية، إلى وضعية الأقليات، على نحو ما فعلت المفوضية العليا مؤخراً.

«ثم إنني ألفت انتباه اللجنة إلى أصداء المعاهدة الفرنسية ـ السورية على حياة لبنان نفسها. فلحماية هذا البلد يجب العمل على أن يقبل لبنان أولاً البنود الخاصة به والتي سوف تدخل في المعاهدة الفرنسية ـ السورية، وإلاَّ فسوف يحدث للبنانيين ما حدث للعلويين.

«وأخيراً، هناك مشكلة طرابلس، المدينة المسلمة الوحيدة على الساحل: يتعين إيجاد وضعية خاصة لهذه المسألة».

ولم يتح لي الوقت بعدُ لإجراء تسجيل منهجي لمداخلات ماسينيون في الأعوام الأخيرة للجمهورية الثالثة، خاصة في إطار اللجنة العليا للبحر المتوسط. إن المسألة السورية تظل عنصراً أساسياً في شواغله، في حين أنه يجري تعديل المعاهدة الفرنسية ـ

السورية بشكل منتظم من جانب الحكومة الفرنسية التي تُفقِدها جانباً كبيراً من أهميتها. ويبدو أن ماسينيون قد علق آمالاً كبيرة على شخصية جابرييل بييو، الذي عين في أواخر عام ١٩٣٨ مفوضاً سامياً في المشرق، كما تشهد على ذلك هذه الرسالة التي يوجهها إليه في ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٨:

«باريس، ١٧ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٨

«السيد السفير والصديق العزيز،

«من الأرجح أنه من غير المأمول أن يكون بوسعي عمل شيء آخر غداً سوى أن أصافحك في ذلك اللقاء. ولذا فإنني أكتب إليك لكي أقول إنه لا يجب على أية حال اليأس تماماً من تصور فعلِ تقارب فرنسي ـ عربي في المشرق في الساحة الدينية الإسلامية، وذلك بالرغم من تعلمن الشبيبة بالغ التقدم. فالواقع أن هناك أناساً، في دمشق كما في بيروت، يهتمون بإصلاح معنوي للمجتمع الإسلامي يستند إلى إعادة تنظيم لكليات الالهيات على أسس تقليدية.

«ولا يتعلق الأمر البتة بحركة شبه وهابية. فهذه الحركة الأخرى (القوية جداً من جهة أخرى) يصعب عليها التكيف مع تعاون معنا: والحال أن صديقنا لاوست، أميننا العام في دمشق،

والعليم بالأمور بسبب مكانته الممتازة، سوف يشرح لك ذلك. كـــلا، إن أولئك الذين أفكر فيهم هم جماعة ذات اتجاه أكثر محافظة وألفت انتباهكم خاصة، في بيروت نفسها، إلى صديقي القديم نـــور الديـــن بيهوم، في المتحف الوطني اللبناني، الذي كتب لـــي قبـــل بضعـــة شهور لكي يشدد على ضـــرورة الاتجـــاه، بدعـــم مـــن الحكومـــة الفرنسية، إلى إنشاء نوع من معهد للدراسات الإسلامية في دمشـــق، بما يشكل نوعاً من أزهر مجدَّد من وجهة النظر العربية. وجميـــع الرسائل التي أتلقاها تلفت انتباهي إلى عـــودة جـــد واضحـــة إلـــى المشروع القديم الخاص بالاتحاد الكونفيديرالي العربي والـــذي لـــم تكف إنجلترا عن تأييده منذ سنوات كثيرة.

«ولا يجب أن نتخلف عن هذه الحركة الفكرية. وليس بوســـعنا بالطبع أن نقدم لها عين التعاون النشـــيط الـــذي تقدمـــه بريطانيـــا العظمى، وذلك بسبب شمالنا الأفريقي، إلاَّ أنه يبدو لي أن كـــل مـــا من شأنه أن يعزز في دمشق وفي بيروت تجديد ثقافة عربية جـــادة وعميقة يجب أن يلقى دعمنا وتأييدنا المدروس. وفي هـــذا المجـــال أيضاً، فإن لاوست هو الرجل الذي يمكنه في الساحة أن يشرح لكـــم الأمور وأنا حريص على أن أكرر ذلك لكم كتابةً».

ومن الواضح أن ماسينيون هو أحد ملهمي مراسيم المفـــوض السامي حول تعديلات الأحوال الشخصية للسكان تحـــت الانتـــداب.

وهي تمنى بالفشل بسبب التظاهرات الشعبية العنيفة التي تدفع بييـــو إلى تعليق هذه المراسيم. والحال أن المأزق السياسي الذي يوجد فيه التعاون الفرنسي ــ السوري عندئذ إنما يقود الفرنسيين في الشـــهور التالية إلى العودة إلى إدارة مباشرة لسوريا، بينما يعهد بييـــو إلـــى مجموعة صغيرة من الخبراء في باريس بالتعديل التـــالي للدســـتور السوري. ويبدو أن ماسينيون يرفض آنئذ الدخـــول مباشـــرة فـــي المناقشة كما تشهد على ذلك هذه الرسالة من مونتـــاني إلـــى بييـــو والمؤرخة في ١٠ يونيو/ حزيران ١٩٣٩:

«نتوصل إلى ننجز في " السياسة الخارجية " الجـــــزء الأول مـــن العمل الخاص بالدستور السوري. وقد امتنع السيد ماســـينيون تقريباً عن الحضور، لكننا حصلنا على تأكيدات بالتعـــاون الفعـــال والمنتظم من جانب السادة روبير دو كيه والأب الجليـــل جـــالابير والقومندان دو فربيه والكابتن روندو والبروفيسور جيدل. وأفكر في أن أرسل لكم محرَّرنا الذي يتعلق أساساً بمجلس الشيوخ، عبر بريـــد الأربعاء. وقد جرى الاضطلاع بهذا البحـــث علـــى افـــتراض أن سوريا سوف تحتفظ بالنظام الجمهوري. وإذا كـــان مـــن الممكـــن حدوث عودة ملكية، فإن اختصاصات مجلس الشيوخ سوف يكـــون بالإمكان تعزيزها بسهولة. ونحن منكبون الآن على دراسة تنظيـــم مجلس ضمان؛ والحال أن الكابتن روندو هو الـــذي يتولـــى مهمـــة التحرير الرئيسية. وآمل أن ننهي عملنا بحلول ١٥ يوليو/ تموز».

وتحت تأثير التظاهرات الإسلامية، قرر بييو التحول صوب الإسلام لمواجهة نزعة قومية عربية بدت له آفلة. وقد تحدث عن ذلك إلى ماسينيون الذي حضر إلى سوريا في مستهل عام ١٩٤٠ وهو يستحضر الأمر في رسالة بتاريخ ٢٩ يناير/ كانون الثاني إلى لابيير، مدير مكتب المشرق في باريس:

«أشكرك على رسالتك المؤرخة في ٢٤ يناير/ كانون الثاني وعلى جولة التوزيع التي مكنتني من أن أرى من جديد بعض الأصدقاء في الصحافة. يبدو أن هذا التوثيق يمكن أن يكون مفيداً. وقد أدركت ذلك بشكل أفضل خلال الحديث مع ماسينيون الذي قضى بضعة أيام هنا مؤخراً. لقد كان مندهشاً جداً من التغير الذهني للسوريين وبما أنه قد أرجعه إلى وجود قواتنا التي زادت زيادة قوية، فقد كان عليَّ أن أوضح له أن المناخ موجود منذ يوليو/ تموز، قبل وقت طويل من حصولنا على تعزيزات. وكان على ماسينيون أن يعترف بأفول الفكرة القومية. وقد صدمه، في المقابل، أن يرى نهضة دينية معينة للإسلام. وقد ذكّرته بأنني قبل الذهاب إلى سوريا كنت قد سألته ما إذا لم يكن بوسعنا الاعتماد على بعض العناصر الدينية، المحافظة من حيث الجوهر، وإن كانت ذات توجه عالمي بما يكفي للتمكن من مقاومة الشيطان القومي. وفي تلك اللحظة كان يعتقد أن ذلك مستحيل. وهو يعترف بأن هذا الأمل لم يعد الآن وهمياً».

• خلاصة مؤقتة

كان من الواضح تماماً أنني قصدت ألاَّ أشير في أي مكان إلى المقاربة الصوفية للإسلام والتي تميز عمل ماسينيون. ويبدو لي أن عينة الوثائق التي جمعتها تتميز بمأثرة الإشارة إلى عدد من الخطوط الرئيسية.

فبادئ ذي بدء، نجد أن عمل ماسينيون الجامعي والسياسي في ظل الجمهورية الثالثة إنما يدور في إطار سياسة فرنسا حيال العالم الإسلامي إلى الدرجة التي يمكن معها القول بأن عمل ماسينيون السوسيولوجي حتى عام ١٩٤٠ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بشواغل سياسة فرنسا حيال العالم الإسلامي. وفي بعض الحالات، سوف نجد أن أجزاء بأكملها من النصوص تعد متطابقة في المقالات المنشورة وفي التقارير الإدارية. وهذا الجانب من عمل ماسينيون إنما يشهد على الأسلوب الذي تمكنت به الجمهورية الثالثة، منذ بداية القرن، من دمج سلسلة بأكملها من الجامعيين المتخصصين في العالم الإسلامي في تعريف سياستها وهو ما لن تتمكن من فعله لا الجمهورية الرابعة ولا الجمهورية الخامسة، حتى وإن كان المجلس الأعلى للدراسات العربية والإسلامية قد لعب دوراً معيَّناً.

والنقطة الجوهرية الثانية هي أنه لا يمكن اعتبار لويس ماسينيون عميلاً للاستخبارات، بل يمكن اعتباره بالأحرى «ناصحاً

للأمير»، حتى خلال الحرب العظمى [١٩١٤ــ ١٩١٨]. ومستوى مداخلاته يشير إلى رغبة متصلة في دمج منظور سوسيولوجي في تعريف سياسة في الأمد الطويل كما يشير إلى رفضٍ لصلاحية إرشادات مصلحة الاستخبارات المسارعة إلى الدسائس وإن كانت عاجزة عن رصد التطورات الجارية.

وهذه السياسة ذات الأمد الطويل يمكن تعريفها بأنها «ليبرالية»: فالأمر يتعلق، من جهة، بتخفيف صدمة الاستعمار عبر إبداء احترام أكبر للثقافة العربية والإسلامية. وخلال مجمل تلك الفترة، يدعو ماسينيون إلى إعطاء دور كبير للتعبير باللغة العربية التي لا يجب خنقها عبر فرانكوفونية تُفرض بشكل سلطوي بقدر الاتجاه إلى تقييد المجالات التي يمكن استخدام اللغة العربية فيها. لكن الأمر يتعلق، من جهة أخرى، برؤية تطورية للثقافة العربية: إن الاهتمام الذي يبديه ماسينيون مثلاً تجاه مجمع اللغة العربية بالقاهرة إنما يتركز خاصة على الأسلوب الذي يمكن به للغة العربية أن تعبر عن الحداثة.

ورؤية ماسينيون التطورية هذه تتواجد أيضاً في مفهومه عن الإسلام. وبما أن من المؤكد أنه قد تأثر تأثراً كبيراً قبل عام ١٩١٤ بلقائه مع الأوساط السلفية، فقد تعلق بمنظور حداثي لتطور الإسلام يميل إلى تقارب تدريجي للأعراف ومن ثم للنظم القانونية بين

المتروبول والبلدان الإسلامية التابعة له. وهكذا نجده يشـــدد علـــى تجليات تحرر المرأة فـــي المشـــرق ويقترحـــها كنمـــاذج بالنســـبة للمغرب.

وما يتوخاه بشكل رئيسي هو التوصل إلـــى تحـــرر إســـلامي يكون انفتاحاً على الحداثة في إطار فرنسي قـــائم علـــى التســـامح والانفتاح الفكري. لكنه ليس غير فاعل وحيد بين آخرين في لعبـــة علاقات القوة التي تقرر سياسة فرنسا حيال العالم الإســـلامي. وإذا كان لم يجر الإصغاء إليه وإتباعـــه دائماً، فمما لا جـــدال فيـــه أن آراءه قد لقيت الاحترام في الأوساط الحاكمة للجمهوريـــة الثالثـــة. والحق إنه يتمتع، إلى حد معين، وذلك بسبب مشاركته فـــي بعثـــة بيكو، بدائرة واسعة من علاقات الصداقة مع مسئولي الكيه دورسيه [وزارة الخارجية] في حيـــن أن علاقاتـــه مـــع العســـكريين تعـــد بالأحـــرى متوترةً (أنظر انتقاداته لمصلحة الاســـتخبارات عمومـــاً ولكاترو بوجه خاص). ومن المفارقات أن مونتاني الذي يأخذ فـــي الحلول محله منذ النصف الثاني للثلاثينيات كنـــاصح للأمـــير، لـــه علاقات مع العسكريين أوسع من علاقاته مع الديبلوماسيين.

والحال انه لا يمكن تفسير تمسك ماســـينيون برؤيـــة حداثيـــة للإسلام إلاَّ إذا اعتبرنا الإسلام المقصود ليس إسلاماً أبدياً مجمداً بل ديناً ــ مجتمعـــاً في حركة. وفي الثلاثينيات، لا يتجاهل الأستاذ فـــي

الكوليج دو فرانس التصلب المذهبي والانغلاق الثقافي المؤكد اللذين تعرفهما الأوساط السلفية المواكبة لدخول أكثر مباشرة إلى السياسة مع مولد الإسلام السياسي بالمعنى المحدد للمصطلح (الإخوان المسلمون في مصر). وظهور مصطلح «شبه الوهّابي» في نسقه المرجعي إنما يشير بوضوح إلى أنه يميز بين الحداثيين وأولئك الذين، مع انبثاقهم من الوسط نفسه، سوف يكونون نقاده ثم خصومه.

والخلاصة أننا نجد أن مكانة لويس ماسينيون في سياسة الجمهورية الثالثة حيال العالم الإسلامي هي مكانة الرجل الذي كانه على مدار حياته، أي مكانة رجل كان يريد التوفيق بين الفرنسيين والمسلمين، وهو توفيق موضوع تحت شارة الضيافة المقدسة.

المصادر

Ce travail est fondé sur un dépouillement parteil des archives françaises et doit être considéré comme un aperçu et non comme une version définitive. Je remercie Mme Jalila Sbai sans qui ce travail sur la politique musulmane n'aurait pas été possible.

MAE, Nantes, Jérusalem, B, 71.

Je m'appuie ici sur le d"epouillement d'archives sur Massignon durant les années de guerre et les snnées 1920 fait par Gérard Khoury qui a accompli untravail pionnier, en particulier dans les archives rapatriées du Ministère des Affaires Etrangères. II doit être considéré comme «I'inventeur» de ces archives. MAE, K, 102, 1.

Opera Minora, I, pp. 271-286.

Opera Minora, III, pp. 454-460.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 29 Janvier 1927, 44.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 9 Juin 1927.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 14 février 1928.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 6 mars 1928-137e séance.

Papiers Augustin Bernard, vol. 14. CIAM du 8 mai 1928-138e séance.

CIAM du 14 février, 144e séance, suite de l'exposé de Massignon, précisions et éclaircissements.

Papiers Augustin Bernard, vol. 15, CIAM du 31 mai, 146e.

II est référé, *passim*, à la brochure officielle du Gouvernement général («Lois, décrets et arrêtés concernant les réformes indigènes», Alger 1919); brochure qui serait à rééditer avec insertion des modifications effectuées depuis cette date.

Annuaire statistique du royaume d'Egypte pour 1927-1928.

CIAM 21 (les cotes Commission Interministérielle des Affaires Musulmanes 20 et 21 renvoient à deux cartons des archives du Quai d'Orsay qui doivent probablement correspondre à une parite des papiers d'Augustin Bernard non intégrés au fonds Augustin Bernard).

16 décembre 1931, Papiers Augustin Bernard, vol. 16.

Papiers Augustin Bernard, vol. 16 CIAM 20.

CIAM 20, CIAM du 19 mars 1934, 174e.

CIAM 20, Session spéciale du 1er mai 1934.

Papiers Augustin Bernard, vol. 15, CIAM du 30 octobre 1934 178e.

Papiers Augustin Bernard, vol. 15.

CIAM 20.

CIAM 20.

MAE, Afrique, 1930-1940, Egypte, 121.

Papiers Augustin Bernard, vol. 15, CIAM du 21 décembre 1934, 179e.

MAE, Afrique, 1930-1940, Egypte, 121.

MAE Levant 1930-1940, Syrie Liban, V492, 161.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلي الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمدا المبادئ التالية:

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية.

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب.

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبا إلي جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين.

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة.

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت: بإشراف: أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة — والاس مارتن — ت : حياة جاسم محمد

٣٧- واحة سيوة وموسيقاها — بريجيت شيفر — ت : جمال عبد الرحيم

٣٨- نقد الحداثة — آلن تورين — ت : أنور مغيث

٣٩- الإغريق والحسد — بيتر والكوت — ت : منيرة كروان

٤٠- قصائد حب — آن سكستون — ت : محمد عيد إبراهيم

٤١- ما بعد المركزية الأوربية — بيتر جران — ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد

٤٢- عالم ماك — بنجامين باربر — ت : أحمد محمود

٤٣- اللهب المزدوج — أوكتافيو باث — ت : المهدى أخريف

٤٤- بعد عدة أصياف — ألدوس هكسلى — ت : مارلين تادرس

٤٥- التراث المغدور — روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين — ت : أحمد محمود

٤٦- عشرون قصيدة حب — بابلو نيرودا — ت : محمود السيد على

٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

٤٨- حضارة مصر الفرعونية — فرانسوا دوما — ت : ماهر جويجاتى

٤٩- الإسلام فى البلقان — هـ . ت . نوريس — ت : عبد الوهاب علوب

٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير — جمال الدين بن الشيخ — ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى

٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية — داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى — ت : محمد أبو العطا

٥٢- العلاج النفسى التدعيمى — بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل — ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش

٥٣- الدراما والتعليم — أ . ف . ألنجتون — ت : مرسى سعد الدين

٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح — ج . مايكل والتون — ت : محسن مصيلحى

٥٥- ما وراء العلم — چون بولكنجهوم — ت : على يوسف على

٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود على مكى

٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى

٥٨- مسرحيتان — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمد أبو العطا

٥٩- المحبرة — كارلوس مونييث — ت : السيد السيد سهيم

٦٠- التصميم والشكل — جوهانز ايتين — ت : صبرى محمد عبد الغنى

٦١- موسوعة علم الإنسان — شارلوت سيمور - سميث — مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى

٦٢- لذة النص — رولان بارت — ت : محمد خير البقاعى .

٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة) — آلان وود — ت : رمسيس عوض .

٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى — برتراند راسل — ت : رمسيس عوض .

٦٦- خمس مسرحيات أندلسية — أنطونيو جالا — ت : عبد اللطيف عبد الحليم

٦٧- مختارات — فرناندو بيسوا — ت : المهدى أخريف

٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى — فالنتين راسبوتين — ت : أشرف الصباغ

٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين — عبد الرشيد إبراهيم — ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى

٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية — أوخينيو تشانج رودريجث — ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى — داريو فو — ت : حسين محمود

٧٢- السياسي العجوز	ت. س. إليوت	ت. فؤاد مجلي
٧٣- نقد استجابة القارئ	جين. ب. توميكنز	ت: حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك في مصر	ل. ا. سيمينوفا	ت. حسن بيومي
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت. أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت: عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت: أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت: سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت: مكارم الغمري
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت: محمد طارق الشرقاوي
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت: محمود السيد علي
٨٣- مختارات	غوتفريد بن	ت: خالد المعالي
٨٤- موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت: عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت: عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل	جمال مير صادقي	ت. أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧- نون والقلم	جلال آل أحمد	ت: ماجدة العناني
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت: إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت: أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠- وسم السيف	ميجيل دي ترياتس	ت: محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت: محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت: نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت: عبد الوهاب علوب
٩٤- الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت: فوزية العشماوي
٩٥- مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت: سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت: إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت: بشير السباعي
٩٨- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت. أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت: إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت: إبراهيم فتحي
١٠١- النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت: رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت: عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣- قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت: محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت: عبد الغفار مكاوي
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	ت: عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت: د. أشرف علي دعدور
١٠٧- صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت: محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩- حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤي	ت : سمحه الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرؤوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت: إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت. حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت: زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت: صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت: بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت: نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت: سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت: محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت: شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت: شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت: شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت: بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت: هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت: محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إليس كاشمور	ت: أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت: حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت: محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت: سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت: محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت: ياسين طه حافظ
١٨٢- جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت: فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة .. حالة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	ت:إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بزرج علوى	ت:محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	ت:بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	بول دى مان	ت:سعيد الغانمي
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت:محسن سيد فرجاني
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- رحلة إبراهيم بك جـ١	زين العابدين المراغي	ت:محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت:محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت:محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت:أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت:إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالي	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقي	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائي	سنائي الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغي	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	ت: نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازار	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافي	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

٢٢٢- فرانز كافكا — رونالد جراى — ت: نسيم مجلى

٢٢٣- العلم فى مجتمع حر — بول فيرابنر — ت: السيد محمد نفادى

٢٢٤- دمار يوغسلافيا — برانكا ماجاس — ت: منى عبدالظاهر إبراهيم السيد

٢٢٥- حكاية غريق — جابرييل جارثيا ماركث — ت: السيد عبدالظاهر السيد

٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى — ديفيد هربت لورانس — ت: طاهر محمد على البربرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر — موسى مارديا ديف بوركى — ت: السيد عبدالظاهر عبدالله

٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن — جانيت وولف — ت: مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن

٢٢٩- مأزق البطل الوحيد — نورمان كيجان — ت: أمير إبراهيم العمرى

٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر — فرانسواز جاكوب — ت: مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣١- الدرافيل — خايمى سالوم بيدال — ت: جمال أحمد عبدالرحمن

٢٣٢- ما بعد المعلومات — توم ستينر — ت: مصطفى إبراهيم فهمى

٢٣٣- فكرة الاضمحلال — أرثر هومان — ت: طلعت الشايب

٢٣٤- الإسلام فى السودان — ج. سبنسر تريمنجهام — ت: فؤاد محمد عكود

٢٣٥- ديوان شمس تبريزى ج١ — جلال الدين مولوى رومى — ت: إبراهيم الدسوقى شتا

٢٣٦- الولاية — ميشيل تود — ت: أحمد الطيب

٢٣٧- مصر أرض الوادى — روبين فيدين — ت: عنايات حسين طلعت

٢٣٨- العولمة والتحرير — الانكتاد — ت: ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد

٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى — جيلارافر - رايوخ — ت: نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق

٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار — كامى حافظ — ت: صلاح عبدالعزيز محجوب

٢٤١- فى انتظار البرابرة — ج . م كويتز — ت: ابتسام عبدالله سعيد

٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض — وليام إمبسون — ت: صبرى محمد حسن عبدالنبى

٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١ — ليفى بروفنسال — ت: على عبدالرؤوف البمبى

٢٤٤- الغليان — لاورا إسكيبيل — ت: نادية جمال الدين محمد

٢٤٥- نساء مقاتلات — إليزابيتا أديس — ت: توفيق على منصور

٢٤٦- مختارات قصصية — جابرييل جارثيا ماركث — ت: على إبراهيم على منوفى

٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر — والتر إرمبريست — ت: محمد طارق الشرقاوى

٢٤٨- حقول عدن الخضراء — أنطونيو جالا — ت: عبداللطيف عبدالحليم عبدالله

٢٤٩- لغة التمزق — دراجو شتامبوك — ت: رفعت سلام

٢٥٠- علم اجتماع العلوم — دومنيك فينك — ت: ماجدة محسن أباظة

٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (ج٢) — جوردن مارشال — ت: بإشراف: محمد الجوهرى

٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية — مارجو بدران — ت: على بدران

٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية — ل. أ. سيميونوفا — ت: حسن بيومى

٢٥٤- الفلسفة — ديف روبنسون وجودى جروفز — ت: إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٥- أفلاطون — ديف روبنسون وجودى جروفز — ت: إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦- ديكارت — ديف روبنسون ، كريس جرات — ت: إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة — وليم كلى رايت — ت: محمود سيد أحمد

٢٥٨- الغجر — سير أنجوس فريزر — ت: عُباده كُحيلة

٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور — أقلام مختلفة — ت: فاروجان كازانجيان

٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردن مارشال	ت: باشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	ت: على يوسف على
٢٦٤- ابداعات شعرية مترجمة	هوراس/ شلى	ت: لويس عوض
٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت: لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت: عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	ت: بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت: إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم جيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها ج٢	وليم جيفور بالجريف	ت: صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	ت: شوقى جلال
٢٧٢- الاديرة الأثرية فى مصر	س. س والترز	ت: إبراهيم سلامة
٢٧٣- الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت: عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا	رومولو جلاجوس	ت: محمود مكى
٢٧٥- ت. س إليوت شاعرا وناقدا وكاتبا مسرحيا	أقلام مختلفة	ت: ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	فرانك جوتيران	ت: عبد القادر التلمسانى
٢٧٧- الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت: أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحق عظيموف	ت: ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	ت: طلعت الشايب
٢٨٠- من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت: سمير عبدالحميد
٢٨١- الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت: جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وليبرت	ت: سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق	خوان رولفو	ت: على البمبى
٢٨٤- هرقل مجنونا	يوريبيدس	ت: أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت: سمير عبد الحميد
٢٨٦- رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	ت: محمد يحيى واخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ت: ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت: أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٢- المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت: السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت: نخبة من المترجمين
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	ت: رجاء ياقوت صالح
٢٩٥- سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت: بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦- مكبث	وليم شكسبير	ت: محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت: ماجدة محمد أنور

٢٩٨- مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت: مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت: هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الانجليزى والفرنسى مج١	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الانجليزى والفرنسى مج٢	لويس عوض	ت: جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣- بوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- ماركس	ريوس	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد	كروزيو مالابارته	ت: صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت: نبيل سعد
٣٠٧- الشعور	ديفيد بابينو	ت: محمود محمد أحمد
٣٠٨- علم الوراثة	ستيف جونز	ت: ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩- الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	ت: جمال الجزيرى
٣١٠- يونج	ناجى هيد	ت: محيى الدين محمد حسن
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت: فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت:أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت: عبدالله الجعيدى
٣١٤- الفن كعدم	جينس مينيك	ت: هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت: كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	ت: نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	شير لايموفا– زنيكين	ت: أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت: أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت: حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	ت: محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت: نخبة من المترجمين
٣٢٢- وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كليناور	ت: خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت: هانم سليمان
٣٢٤- اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت: محمود سلامة علاوى
٣٢٥- عالم الآثار	فيليب بوسان	ت: كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت: حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت: توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت: عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت: محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت: سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت: سامية دياب
٣٣٢- القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	ت: على إبراهيم على منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت: بكر عباس

٢٣٤- لقطات من المستقبل   ارثر.س كلارك   ت: مصطفى فهمى
٢٣٥- عصر الشك   ناتالى ساروت   ت: فتحى العشرى
٢٣٦- متون الأهرام   نصوص قديمة   ت: حسن صابر
٢٣٧- فلسفة الولاء   جوزايا رويس   ت: أحمد الأنصارى
٢٣٨- نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)   نخبة   ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٣٩- تاريخ الأدب فى إيران جـ٣   على أصغر حكمت   ت: محمد علاء الدين منصور
٢٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط   بيرش بيربيروجلو   ت: فخرى لبيب
٢٤١- قصائد من رلكه   راينر ماريا رلكه   ت: حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال   نور الدين عبدالرحمن بن أحمد   ت: عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل   نادين جورديمر   ت: سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس   بيتر بلانجوه   ت: سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمن   بونه ندائى   ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر   رشاد رشدى   ت: جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون   جان كوكتو   ت: بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١   محمد فؤاد كوبريلى   ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة   أرثر والدرون وآخرون   ت: أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية   أقلام مختلفة   ت: عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق   جوزايا رويس   ت: أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس   قسطنطين كفافيس   ت: نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)   باسيليو بابون مالدوناند   ت: على إبراهيم على منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)   باسيليو بابون مالدوناند   ت: على إبراهيم على منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران   حجت مرتضى   ت: محمود سلامة علاوى
٢٥٦- الميراث المر   بول سالم   ت: بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هيرميس   نصوص قديمة   ت: عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية   نخبة   ت: مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورات بارمنيدس   أفلاطون   ت: حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوجيا اللغة   أندريه جاكوب ونويلا باركان   ت: ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة   آلان جرينجر   ت: عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبيرج   هاينرش شبورال   ت: سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية   ريتشارد جيبسون   ت: صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير   إسماعيل سراج الدين   ت: نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس   شارل بودلير   ت: محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب   كلاريسا بنكولا   ت: مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرئ   نخبة   ت: البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى   جيرالد برنس   ت: عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ   فوزية العشماوى   ت: فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية   كليرلا لويت   ت: فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢   محمد فؤاد كوبريلى   ت: عبدالله أحمد إبراهيم

٣٧٢- عاش الشباب — وانغ مينغ — ت: وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه — أمبرتو إيكو — ت: على إبراهيم على منوفى
٣٧٤- اليوم السادس — أندريه شديد — ت: حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود — ميلان كونديرا — ت: خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين — نخبة — ت: إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران جـ٤ — على أصغر حكمت — ت: محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر — محمد إقبال — ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩- ملك فى الحديقة — سنيل باث — ت: جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة — جونتر جراس — ت: شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة — ر. ل. تراسك — ت: رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان — بهاء الدين محمد إسفنديار — ت: أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز — محمد إقبال — ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال — سوزان إنجيل — ت: إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق — محمد على بهزادراد — ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبى النسوى — جانيت تود — ت: ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات — جون دن — ت: بهاء جاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى — سعدى الشيرازى — ت: محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- من الأدب الباكستانى المعاصر — نخبة — ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى — نخبة — ت: عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية — مايف بينشى — ت: منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية — نخبة — ت: عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق — ندوة لويس ماسينيون — ت: نخبة
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون — بول ديفيز — ت: هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش — إسماعيل فصيح — ت: سليم حمدان
٣٩٦- السافاك — تقى نجارى راد — ت: محمود سلامة علاوى
٣٩٧- نيتشه — لورانس جين — ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- سارتر — فيليب تودى — ت: إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- كامى — ديفيد ميروفتس — ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو — مشيائيل إنده — ت: باهر الجوهرى
٤٠١- الرياضيات — زيادون ساردر — ت: ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- هوكنج — ج. ب. ماك ايفوى — ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس — توبور شتورم — ت: عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى — ديفيد إبرام — ت: ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل — أندريه جيد — ت: حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩ — مانويلا مانتاناريس — ت: جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه — أقلام مختلفة — ت: طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر — جوان فوتشركنج — ت: عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة — برتراند راسل — ت: إلهامى عمارة

٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	ت: الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضي	جينيفر أكرمان	ت: أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ٢	ليفى بروفنسال	ت: نخبة
٤١٣- أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت: محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت: أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت: أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت: مصطفى بدوى
٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٥	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواى	ت: عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	ت: نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس	فولتير	ت: الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة	روى متحدة	ت: أشرف محمد كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا ج١	نخبة	ت: عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	ت: وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامي	ت: محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	ت: محمودد سلامة علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ت: ثريا شلبى
٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك	ت: محمد أمان صافى
٤٢٩- هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	ت: حمدى الجابرى
٤٣٤- الرومانسية	دونكان هيث وجودن بورهام	ت: عصام حجازى
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ت: ناجى رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندى في بلاد الشرق	شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	ت: عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابى	صدر الدين عينى	ت: محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	ت: محمد الشرقاوى
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة	أروندهاتى روى	ت: فخرى لبيب
٤٤٢- حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ت: ماهر جويجاتى
٤٤٣- اللغة العربية	كيس فرستيغ	ت: محمد الشرقاوى
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	ت: صالح علمانى
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	ت: محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	ت: أحمد محمود
٤٤٧- نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ت: ممدوح عبدالمنعم

٤٤٨- علم نفس التطور	ديلان إيفانز – أوسكار زاريت	ت: ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩- الحركة النسائية	مجموعة	ت: جمال الجزيرى
٤٥٠- ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا – ريبيكا رايت	ت: جمال الجزيرى
٤٥١- الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن – بورن ڤان لون	ت: إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناترى – أوسكار زاريت	ت: محى الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	ت: حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عاما من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	ت: سوزان خليل
٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	ت: محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى	مريم جعفرى	ت: هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء في الفكر السياسي الغربي	سوزان موللر اوكين	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	خوليو كارو باروخا	ت: جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	ت: جلال البنا
٤٦٠- الفاشية والنازية	ستوارت هود- ليتزا جانستز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- لكان	داريان ليدر- جودى جروفز	ت: إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	ت: عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	ت: كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية القلة	ميكائيل بارنتى	ت: حصة منيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبرج	ت: جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	ت: فاطمة محمود
٤٦٧- التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ت: ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	ت: مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	نخبة	ت: محمد السيد الننة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا ج٢	نخبة	ت: عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	ت: سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	ت: سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	ت: عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	ت: سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين	هيلدا هوخام	ت: أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و... شى دونج	ت: عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهــــى (مسرحية صينية)	لاوشه	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	ت: عبد العزيز حمدى
٤٨١- عباءة النبى	رؤى متحدة	ت: رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	ت: فاطمة محمود
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	ت: أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	ت: رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم

٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	ت: عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	ت: سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	هُسّرل	ت: محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	ت: عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	ت: سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	ت: محمد رفعت عواد
٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	ت: محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	ت: شريف الصيفى
٤٩٥- اللوبى	إدوارد تيفان	ت: حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦- الحكم والسياسة فى أفريقيا	إكوادو بانولى	ت: مجموعة من المترجمين
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	ت: مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	ت: أحمد على بدوى
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	ت: فيصل بن خضراء
٥٠٠- فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	ت: طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء فى الغرب	أرثر جولد هامر	ت: سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة	هدى الصدّة	ت: هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	ت: محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية ج١	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية ج٢	مارتن هايدجر	ت: إسماعيل المصدق
٥٠٦- ربما كان قديسًا	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	ت: شوقى فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	ت: عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	ت: قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	ت: عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقّع	آن تيلر	ت: عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	ت: جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور	تيد أنتون	ت: مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	ت: مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	ت: فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	أرنولد واشنطون- ودونا باوندى	ت: صبرى محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	ت: سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	ت: هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٥٢٠- الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	ت: أمل الصبان
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	ت: عبدالوهاب بكر
٥٢٢- إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	ت: على إبراهيم منوفى
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	ت: على إبراهيم منوفى

العنوان	المؤلف	المترجم
٥٢٤ - بانوراما الإسلام الإسرائيلي	دان كاسبر وبيير ل ليمور	ت: أحمد المغازي
٥٢٥ - موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	ت: نادية رفعت
٥٢٦ - علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	ت: محي الدين مزيد
٥٢٧ - كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	ت: جمال الجزيري
٥٢٨ - تروتسكي والماركسية	طارق علي وفِلْ إيفانز	ت: جمال الجزيري
٥٢٩ - بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي	محمد إقبال	ت: حازم محفوظ وحسين نجيب المصري
٥٣٠ - مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	ت: عمر الفاروق عمر
٥٣١ - ما الذي حَدَثَ في «حدث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	ت: صفاء فتحي
٥٣٢ - المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	ت: بشير السباعي

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٣٢٠
I. S. B. N.
477 - 305 - 369-5
مطابع المجلس الأعلى للآثار



H. LAURENS

L'AVENTUREUX ET L'ORIENTALISTE

ثلاث دراسات تاريخية حول :

الفارس دولاسكاريس . لورانس العرب

لويس ماسينيون